

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل -
كلية الآداب واللغات الأجنبية
قسم: اللغة والأدب العربي



الرقم التسلسلي:

عنوان المذكرة

الهوية عند أمين معلوف من خلال كتابه الهويات القاتلة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة ماستر أدب عربي
تخصص: نقد حديث ومعاصر

إشراف الأستاذة:

- سهيلة بريوة

إعداد الطالب:

- لكحل مختار.

أعضاء لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة	الأستاذ
رئيسا	جامعة محمد الصديق بن يحيى	د. نسيمة حارث
ممتحنا	جامعة محمد الصديق بن يحيى	د. حياة هروال
مشرفا ومقررا	جامعة محمد الصديق بن يحيى	د. سهيلة بريوة

السنة الجامعية: 2022-2023

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل -
كلية الآداب واللغات الأجنبية
قسم: اللغة والأدب العربي



الرقم التسلسلي:

عنوان المذكرة

الهوية عند أمين معلوف من خلال كتابه الهويات القاتلة

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة ماستر أدب عربي
تخصص: نقد حديث ومعاصر

إشراف الأستاذة:

- سهيلة بريوة

إعداد الطالب:

- لكحل مختار.

أعضاء لجنة المناقشة:

الصفة	الجامعة	الأستاذ
رئيسا	جامعة محمد الصديق بن يحيى	د. نسيمة حارث
ممتحنا	جامعة محمد الصديق بن يحيى	د. حياة هروال
مشرفا ومقررا	جامعة محمد الصديق بن يحيى	د. سهيلة بريوة

السنة الجامعية: 2022-2023

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة شكر وعرفان:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أشكر الله وأحمده حمدا كثيرا لتوفيقه
علي إنجاز هذا العمل أتوجه بالشكر والعرفان والتقدير للأستاذة المشرفة
الفاضلة " الدكتور بريمة سهيلة" التي شرفتني بقبولها الإشراف على هذه
المذكرة.

كل الشكر الخالص إلى جميع أساتذة كلية الآداب واللغات الذين ساهموا في
تكوينني وتعليمي خلال مسيرتي الدراسية وشكرا.
فالحمد لله عما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

إهداء:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من جعل الجنة تحت أقدامها أمي الغالية حفظها الله وأطال عمرها كانت سند لي
وعلمتني معنى الاجتهاد والمثابرة والصبر أمي التي ممما فعلت لن أوفيهما حقهما لا
بالإهداء ولا بالدعاء.

إلى والدي الكريم الذي قدم النفس والنفيس من أجل تعليمي إلى إخوتي من كانوا
سند لي في حياتي وطيلة مشواري الدراسي حفظهم الله ورعاهم من كل سوء إلى أحب
الناس إلى قلبي لهم كل الحب والتقدير.

إلى عائلتي وإلى كل من ساندني لإنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد إليكم جميعا
أهدي هذا العمل المتواضع.

مقدمة

تعتبر الهوية القاعدة الأساسية في بناء المجتمع. وذلك يعود إلى أنها تعد النواة المكونة له فهي التاريخ الفكري الذي يتميز به كل مجتمع عن، والملاحظ أن الهوية تعد السبب الرئيسي في حدوث المشاكل داخل المجتمع والنزاعات وهذا راجع إلى كونها مستهدفة من جميع الأطراف المتنازعة.

كما تعد مسألة الهوية من أهم المسائل التي تم التطرق إليها ومعالجتها من طرف العديد من النقاد والمفكرين والباحثين وخاصة في فترة التسعينيات حيث لاقت اهتماما كبيرا أنداك وحتى وقتنا هذا.

ومن هنا أردت أن تكون دراستي في كتاب الهويات القاتلة لأمين معلوف كونه يتكلم عن أزمة الهوية والانتماء بالإضافة الاضطراب الهوياتي الذي عانى منه أمين معلوف بالرجوع إلى أنه مزدوج الانتماء فهو لبناني وفرنسي إضافة إلى أنها تعكس الأوضاع المزرية التي عاشها بلده لبنان خلال الحرب الأهلية وذلك من خلال موضوعنا الموسوم بالهوية عند أمين من خلال كتابه الهويات القاتلة.

لقد اخترت هذا الموضوع لأسباب موضوعية وذاتية، فالذاتية كانت رغبة مني معرفة شعور الإنسان المتعدد الانتماءات والاضطرابات التي تخالجه، وأيضا التطرق إلى الأحداث والوقائع التي شهدتها لبنان والشرق الاوسط عامة من حروب أهلية. وكذلك التعرف على هذا الكاتب الذي قارن بين ديانتين متعارضتين (الاسلام والمسيحية)، والتطرق إلى موضوع الهوية الذي كان مسكوت عنه وكل المواضيع المحيطة به. ولقد كان كتاب الهويات القاتلة ترجمة لإيديولوجيات ولكل ما خالجه وشعر به، فهذا الكتاب اعطى لموضوع الهوية بعدا آخر لجراته في طرح الفكرة. وتعيجه على العديد من القضايا المرتبطة بالهوية.

ولقد نال موضوع الهوية اهتماما كبيرا من طرف الروائيين والباحثين في دراستهم، أهمها الدراسة التي قدمها الباحث الجزائري "أحمد منور" أطروحة دكتوراه المعنونة بأزمة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وقحام توفيق في أطروحته الموسومة الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة وأطروحة نيل الدكتوراه المعنون بالمشاقفة وسؤال الهوية في الخطاب الروائي المغاربي للأستاذة سهيلة بريوة، إذا أصبحت مسألة الهوية من أكبر الإشكالات التي يعاني منها العالم ككل والتي صارت مطروحة بكثرة في الساحة الأدبية والفكرية.

وهذا ما دفعنا إلى طرح الإشكالية التالية:

ما هو مفهوم الهوية؟ وكيف تجلت أزمة الهوية في كتاب "الهويات القاتلة" لأمين معلوف؟ وكيف يراها؟ وهل استطاع هذا الكاتب تصوير الواقع اللبناني في ظل الأزمة الهوياتية خلال الحرب الأهلية؟

ولمعالجة هذه الإشكالية اعتمدنا على مجموعة من المراجع التي أفادتنا في التعرف على مصطلح الهوية ومفهومه و تحليلاته، نذكر منها: كتاب " ل: اليكس ميكشيللي وكتاب " الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي " " لسعيدة بن بوزة , "إضافة إلى كتاب " الهوية العربية و الأمن اللغوي (دراسة توثيق) لعبد الله المسدي " دون أن ننسى مصدرنا الرئيسي في بحثنا هذا وهو "كتاب الهويات القتالة" " " لأمين معلوف " إضافة إلى أطروحة الدكتوراه

أما بالنسبة للمنهج المتبع في بحثنا هذا فهو المنهج الموضوعاتي الذي يجمع بين المضمون والوصف والتحليل فالمضمون: من خلال تطرقه لقضايا عدة في كتابه (كالهجرة والحداثة والعملة...) واعتمادنا في الوصف على: وصف الحالة النفسية والصراع الهوياتي الذي عانى منه أمين معلوف بسبب انتمائه المزدوج، إضافة إلى وصف الواقع اللبناني والحالة المزرية التي يمر بها لبنان إبان الحروب الأهلية المشتعلة. أما التحليل: فيتجلى في دراسة الكتاب من أجل تحديد مفهوم الهوية عند أمين معلوف وأهم المرجعيات المشكلة لها والتعرف على الأزمة الهوياتية التي عانى منها أمين معلوف في منفاه.

وللإجابة على الإشكالية المطروحة ، وبعد اطلاعنا على مجموعة من المراجع وتحديدنا للمنهج المعتمد سطرنا خطة بحث تناسب موضوع بحثنا، والمكونة من: مقدمة، وفصلين، وخاتمة، وملحق، وقائمة للمصادر والمراجع المعتمدة، وسنفضلها كآتي: الفصل الأول: نظري معنون ب : " مقارنة نظرية في مفهوم الهوية" يندرج تحته مبحثان، تطرقنا في المبحث الأول إلى: " مفاهيم ومصطلحات نظرية في الهوية " حيث قدمنا فيه المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمفهوم الهوية، وأيضا تعرفنا على مفهوم الهوية في منظور العلوم في _الفلسفة وفي علم الاجتماع و علم النفس_ .أما المبحث الثاني: الذي تناولنا فيه أنواع الهوية من الجانب الوطني والاجتماعي والثقافي، فتطرقنا فيه للتعريف بالهوية الثقافية والاجتماعية، والوطنية كما تطرقنا إلى مقومات الهوية وتحليلاتها وأهم الخصائص الأساسية المشكلة لها. أما بالنسبة للفصل الثاني: فهو تطبيقي موسوم به "تحليلات أزمة الهوية في كتاب الهويات القتالة لأمين معلوف"، تطرقنا فيه إلى مختلف الصراعات والعراقي التي يعاني منها أمين معلوف خاصة ومزدوجي الانتماء عامة والتي أدت إلى خلق أزمة في المجتمع، مما أدى إلى الحروب والصراعات، ويشتمل على توطئة ومبحثين ينقسم كل مبحث إلى عناصر ففي المبحث الأول المعنون ب بأزمة الهوية وإشكالية الانتماء في كتاب "الهويات القتالة تحدثنا فيه عن مفهوم الهوية وتشكل عناصر الانتماء عند "أمين معلوف". وأزمة الهوية وإشكالية الانتماء والدافع إلى الصراع الهوياتي. أما في المبحث الثاني المعنون ب "مرجعيات تشكل الهوية عند أمين معلوف" والذي يندرج تحته ثلاث مرجعيات (اللغوية، والدينية، والثقافية). ففي المرجعية اللغوية تحدثنا عن

التعددية اللغوية وذلك لاعتبار اللغة عنصرا مهما في تحديد هويتنا أما في المرجعية الدينية فتطرقنا إلى إمكانية تجاوزنا للانتماء الديني ولهذا يعد الأكثر اختيارًا، وتطرقنا إلى الاسلام والمسيحية والدعوة إلى الحوار والتعايش، كما تطرقنا إلى موقف الإسلام من الحداثة. أما في المرجعية الثقافية فتحدثنا عن أزمة الهوية الثقافية في مواجهة الثقافة الغربية، إضافة إلى أزمة الهوية الثقافية في زمن العولمة بين الخصوصية والكونية دون اغفالنا لقضية التهجين والتبادل الثقافي.

ولقد واجهتنا العديد بعض الصعوبات مثل قلة الدراسات السابقة لهذا الموضوع وكذلك تشعب موضوع الهوية إلى العديد من المواضيع المرتبطة به كالهجرة والحداثة والعولمة والتعصب الديني وغيرها من المواضيع البالغة الأهمية. وهي صعوبات لم تحل دون انجاز هذا البحث، وتمكنا بفضل الله وعونه وبالإرادة من تخطيها وتجاوزها، فكل هذه الصعوبات زادتنا عزيمة وإصرارا من أجل إيصال هذا البحث للمبتغى المرجو منه.

وفي الأخير نشكر الله تعالى على عونه، وما أمدنا به من صبر وقوة وإرادة كانت سببا في إتمام بحثنا وإتباعا القول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"، وبهذا لن تفوت الفرصة لتقديم الشكر والعرفان للأستاذة المشرفة "سهيلة بريوة" التي رافقتنا في بحثنا وتكبدت عناء التصحيح، والتوجيه دون ملل وكلل.

بنصائحها وتوجيهاتها، ولم تبخل علينا بما طيلة إعدادنا للبحث، كما نتقدم لها بأسمى عبارات الشكر والتقدير وأدامها الله السراج المنير الذي يضيء العديد من طلاب العلم والأعضاء لجنة المناقشة على تكبدهم عناء قراءة هذه المذكرة وتنقيحها كلمة كلمة وجملة جملة، ولكل من ساعدنا في إتمام بحثنا، ولو من بعيد وأملنا أن يكون بحثنا ملما بجوانب الموضوع وأن ينال حفا من الدراسة في المستقبل، ويأخذ هذا الأديب حقه من الدراسة هو وأعماله.

الفصل الأول: مقارنة نظرية في مفهوم الهوية

المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات نظرية في الهوية.

المطلب الأول: مفهوم الهوية.

المطلب الثاني: مفهوم الهوية في منظور العلوم.

المبحث الثاني: أبعاد وانواع ومقومات الهوية.

المطلب الأول: انواع الهوية.

المطلب الثاني: مقومات الهوية وتحليلاتها في الأدب.

المطلب الثالث: الخصائص الأساسية للهوية.

المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات نظرية في الهوية.

1- مفهوم الهوية:

أ- لغة:

وردت لفظة الهوية في لسان العرب ابن منظور من الفعل هو ي، " وهو ي بالفتح، يهو ي هو يا وهو يانا وأهوى: سقط من فوق الى أسفل، وأهو اه هو، يقال أهو يته إذا ألقيته من فوق¹. قوله عز وجل: «أهو ي»²، المقصود بها قرية قوم لوط حين أهو ي أهلها بما. "أسقطها فهو ت أي سقطت، وهو ي السهم هو يا: سقط من علو الى سفلى"³.

نجد أن معنى الهوية يتمحور حول السقوط من فوق الى أسفل.

جاءت لفظة الهوية في معجم لسان العرب لابن منظور: "هوية تصغير هو ة، وقيل: الهوية بئر بعيدة المهواة"⁴. وقال عنها "الجرجاني" في التعريفات أنها: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"⁵.

لقد وردت العديد من المفاهيم لمصطلح الهوية في العديد من المعاجم، فجاء في المعجم الوسيط في معناها اللغوي أنها تعني: «حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره. إن "الهوية" لضم الهاء مصطلح استعمله العرب المسلمون القدماء، وهو منسوب إلى " هو «وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون»⁶ ومنه فالهوية تعني جوهر الأشياء أو الشخص، أو هي تلك الفروقات التي تميز كل فرد عن غيره، وذلك من خلال السياقات المختلفة التي توضع فيها ويتم توظيفها، والتعامل معها على أنها مرجعية لتحديد انتماء الشخص أو الجماعة.

كما يعرف قاموس المنجد الهوية في اللغة العربية بأنها: «حقيقة الشيء أو الشخص المطلق، المشتملة على صفة الجوهرية»⁷.

¹ جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1863 مادة (ه-و-ى) ص 115.

² سورة النجم، الآية، 52.

³ ابن منظور، لسان العرب، مادة ه. و. ي، ص 115.

⁴ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، ج 14، ط 3، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ص 316.

⁵ علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403 هـ-1983 م، ص 257.

⁶ نقلا عن حاتم الورفلي، بول ريكور: الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ط، 2009، ص 23.

⁷ لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، مادة الهوية، دار صادر، بيروت، ط 8، ص 264، 265.

وعليه فكل هذه التعاريف تصب في قالب واحد وهو التعبير عن هوية الشخص.

كما يعرفها: " قاموس " روبر " الذي عبر عنها مثل معجم لاروس بأنها: «ما يسمح بالتعرف على الشخص بين جميع الأشخاص الآخرين»¹

ومفاد هذا القول هو أن الهوية هي العلامة الفارقة للتمييز بين شخص وآخر مثل بطاقة التعريف الوطنية التي تحمل معلومات الشخص.

ويعرفها قاموس اوكسفورد بأنها: " الشيء هو نفسه وليس شيئاً آخر. " ²

وبالعودة إلى اللسان الغربي نجد المصطلح قد ورد كالتالي: "هوية Identity- Identité الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الأعيان (...). الهوية من هو ، كما تشتق الإنسانية من الإنسان، والرجولية من الرجل " ³.

ب- اصطلاحاً:

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم التي لم تجد بعد تعريفاً شاملاً، فهي مرتبطة بالفرد، وبالجماعة وتميزها عن أفراد وجماعات أخرى، «فهي مجموعة من السمات التي تسمح لنا بتعريف موضوع معين»⁴ فهي مجموعة من العناصر والجزئيات المتصلة فيما بينها. إذ من خلالها يمكن معرفة ذلك الشيء أو الموضوع.

وكما وردت في موسوعة لالاند الفلسفية: «هوية مائية، ماهية: ميزة فرد، أو كائن يمكن من هذا الوجه تشبيهه بفرد يقال عنه إنه متماه، بالمعنى ب، أو انه " هو ذاته " في مختلف فترات وجوده: هوية الأنا»⁵ أي مجموع السمات والصفات التي يتشارك بها إنسان مع إنسان آخر لدرجة التشابه والتماثل بحيث لا يمكن تمييزهما عن بعض.

أما الهوية كما يعرفها: " أليكس ميكشيللي " Alex mexchlli أن مفهوم الهوية يطلق "على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة"⁶

¹ نقلاً عن أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، دار الساحل للكتاب، الجزائر، د.ط، 2013 م، ص 16.

² . Coulson .J Carr.C.T, The Oxford Illustrated Dictionary, Fifth Edition, New York, 1979, p418.

³ مراد وهبة: المعجم الفلسفي، (د، ط)، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007، ص 666-667.

⁴ أليكس ميكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط1، 1441هـ/1993م، ص 15.

⁵ أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 2، ت ع: خليل أحمد خليل، منشورات عويودة، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا، ط2، 1420هـ/2001م، ص 607.

⁶ أليكس ميكشيللي، الهوية، تر: علي وطفة، ط1، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، 1993، ص 7.

فالهوية حسبه مجموع الخصائص والصفات التي تنتمي إلى نسق معين يتصف الفرد من الأفراد ويعرف بواسطتها، ولا يتوقف هذا النسق من المعايير على الفرد لوحده، وإنما يتعدى ذلك إلى هوية الجماعة. "كما يعرفها" تشارلز تايلور" فيقول: "أنها تعني من نكون، فهي المكان الذي ننتسب إليه، إنها تجسد بحق الخبرات والتجارب السابقة التي تضفي معنى على أذواقنا ورغباتنا، وخياراتنا ومطامحنا (...). ومن ثمة فإن إدراكي للهوية التي تعني أنني قد جعلت الهوية موضوعاً للحوار مع الآخرين (...). وبذلك فإن هويتي تعتمد إلى حد كبير على علاقتي التحوارية مع الآخرين." ¹

فالهوية حسب تشارلز تايلور تتشكل من خلال التفاعل مع الآخرين، وليس الانطواء على ذاتها. كما يعرفها "كارمل كاميليري" Carmel camilleri بأنها: «تمفصل مكونين هما ديمومة الأنا واستيعاب الجديد»².

فهذه الذات من أجل ضمان سيرورتها وبقائها لا بد لها من الانفتاح والتفتح على الآخر قصد التواصل والاتصال ولهذا فهوية الإنسان هي بالضرورة في تجده لا في جموده، وفي تفاعله وتفتحها لا في عزله»³. كما يتفق كل من إدوارد سعيد وخوان غويتيسولوغي "Gay Goytisoló Juan" على أن الهوية «ليست خالصة وهذا من خلال أنها تتميز بالهجنة وذلك نتيجة الاختلاط والتداخل بين الثقافات والحضارات والأفكار الإنسانية، فخوان غويتيسولويزرز كل ذلك من خلال انفتاح أعماله الإبداعية على ثقافات عدة»⁴. أي أن الهوية لا تتكون باحتكاك الفرد بالفرد الآخر أو بيئته وإنما تتعدى ذلك إلى احتكاك المجتمعات بين مجتمعات مختلفة عنها تماماً، قصد تمازج الثقافات والاستفادة من الآخر.

المطلب الثاني: مفهوم الهوية في منظور العلوم

1- الهوية في المنظور الفلسفي:

بعدما كان مصطلح الهوية في حالة ركود في الدراسات والأبحاث الفلسفية القديمة بدأ في التطور والتشكل في العصر الحديث والمعاصر، وهناك الكثير من الأسباب التي جعلت المفكرين يهتمون بهذا المفهوم في السنوات الأخيرة

¹ حسام الدين علي مجيد، "انبعاث ظاهرة الهويات، قراءة في منظور المفكر تشارلز تايلور"، موقع مؤمنون بلا حدود، 23-06-2022. 14:00

² أعمال اليوم الدراسي: الرواية بين ضفتي المتوسط، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010. 11.5. ص 77.

³ علي أحمد سعيد أدونيس، شانتال شواف: الهوية غير مكتملة الإبداع، الدين، السياسة، الجنس، تع: حسن عودة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1426هـ/2005م، ص83.

⁴ ينظر: عبد الرحمن النوايتي: السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1437هـ/2016م، ص101-108.

حيث «إذ أسهمت عوامل عديدة في بلورته، وفي مقدمتها تقدم فلسفة الذات خصوصا، وظهور فلسفة الإنسان عموماً»¹، لذلك نجد في المعجم الفلسفي أن الهوية هي: «عبارة عن التشخص، وقد تطلق على الوجود الخارجي، وقد تطلق على الماهية مع التشخيص، وهي حقيقة الجزئية، وقد تطلق على الذات الإلهية، فهوية الحق هي عينه»².

وهي كلمة مولدة اشتقها المترجمون القدامى من الـ "هو" لينقلوا بواسطته إلى العربية كما يقول الفريابي: "المعنى الذي تؤديه كلمة "هست" بالفارسية وكلمة "أستين" باليونانية، أي فعل الكينونة الذي يربط بين الموضوع والمحمول ثم عدلوا عندها ووضعوا كلمة الموجود مكان الـ "هو" والوجود مكان الهوية، ومع ذلك فقد فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي يستدل به على كون الشيء هو نفسه»³.

وعليه فمصطلح الهوية لم يدم على نفس التسمية بل أخذ مسميات عديدة وعلى الرغم من كل هذه التحولات والتطورات التي طرأت على هذا المصطلح.

يعود مصطلح الهوية إلى فترات زمنية قديمة؛ أي إلى أصول يونانية. ومنذ مقولة سقراط "اعرف نفسك بنفسك" فهي كانت موضوع الفلسفة الأولى كما حددته النظرة الأرسطية أو «كما حدده أرسطو هو الوجود، فالوجود بما هو موجود أو الوجود الثابت أو الجوهر هو موضوع الفلسفة الأولى. فالوجود قد يكون عرضيا وهو ليس موضوع هذا العلم، أما الوجود الثابت الذي هو الجوهر فهو الأحق باسم الوجود، أما باقي المقولات التسع فإنما هي أحوال تعرض للجوهر»⁴ وسؤال الهوية يطرح نفسه، إذ أنها كانت تعني: التطابق والتماثل. وهذا ما عبر عنه بصيغة رياضية، فهو يعني أن الشيء هو ذاته أو أنه متطابق مع نفسه. وبمعنى آخر هي أنها تعني شيئا واحدا، ولعل هذا الطرح ذاته الذي يؤكد عليه "مارتن هايدغار" في أن الهوية «قد قدمت دوما على أنها تتمتع بطابع الوحدة، هذه الوحدة هي الفراغ الذي يدوم ويستمر في انسجام فاتر بعيد عن كل علاقة (...) الوحدة التي هي اختلاف وتغاير»⁵.

ومفاد قوله هذا هو أن الهوية تعني أن الشيء واحد يبقى ويستمر دون ارتباطه بمن حوله؛ ودون دخوله في علاقة معهم، هذه الوحدة التي يعني بها "هايدغار" الاختلاف. فهو يرى (مارتن هايدغار) في كتابه (الهوية

¹كمال شلغين: الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع دراسة في الفكر العربي المعاصر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، د.ط، 2015، ص19.

²مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، د.ط، 2007م، ص667.

³حاتم الورفلي: بول ريكور، الهوية والسرد، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، جامعة تونس الأولى، 2009، ص23-24.

⁴يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، تح: هلا رشيد، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص173-174.

⁵عبد السلام بتعبد العالي: هايدغار ضد هيجل التراث والاختلاف، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، هـ1427/2006م، ص84.

والاختلاف) أن «الذات نسق مرجعي تنحدر منها كل أنواع المعقوليات التي تبعث عن الفروق، والمعرفة لا تكون إلا بالتمايز، وذلك حصن ضد كل نزعة كلية، لا تحترم حق الاختلاف».¹

والمقصود هنا بالذات أنها الهوية وتعني الاختلاف والتمايز عنه من خلال الاختلاف بين الذوات، عن طريق مجموعة من الخصائص والصفات التي ترتبط بشخص بدون غيره من الأفراد، والتي تجعله فريداً من نوعه ومتميزاً عن باقي الأفراد الآخرين حتى وإن كانوا من أهله أو المقربون منه أو حتى لو كان أخوه التوأم.

ولقد تم التعبير عن مصطلح الهوية فلسفياً بأنها: «ميزة وصفة الشيء الذي يبقى مساوياً ومشابهاً لنفسه والشروط التي تبقى على الشيء كما هو».²

كما عرف الجرجاني الهوية في التراث العربي في قوله: «إنه الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الاعتبار، أما الهوية عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، وعند الفارابي هوية الشيء عينه وتشخصه وخصوصية وجوده المتفرد الذي لا يقع فيه اشتراك».³ نستنتج من هذه التعاريف بأن مفاهيم الهوية تختلف من دارس لآخر فعند الجرجاني تعني الفرادى والتميز أما عند ابن رشد فتعني المماثلة، في حين نجد أنها عند الفارابي يقصد بها خصوصية الأشياء وفرادتها بعيدة عن التشابه والإشراك.

وذكر في كتاب الكليات "الأبي البقاء الكفوي" أن الهوية تطلق على معانٍ ثلاثة هي: «التشخص والشخص نفسه والوجود الخارجي. قال بعضهم: ما به الشيء هو هو باعتبار يسمى حقيقة وذاتاً، وباعتبار تشخصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية (...) وقال بعضهم: الأمر المتعلق من حيث إنه مقول في جواب (ما هو) يسمى ما هية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هوية».⁴

والهوية في المعاجم الحديثة هي: «حقيقة الشيء أو الشخص المطلق المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره ويسمى أيضاً وحدة الذات».⁵

¹ عز الدين لمناصرة: العولمة والهويات: هويات مطمئنة، هويات قلقية، وهويات مقهورة (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، المجلد 2، مجلة التبيين، مجلة ثقافية فصلية محكمة، تصدر عن الجمعية الثقافية الجاهظية، مدعمة من دار سعاد الصباح، الع 24، 1426هـ/2005م، ص 113.

² نوال حمادوش: السلوك اللغوي والهوياتي في المجتمعات المغاربية، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1436هـ/2015م، ص 54.

³ محمد إبراهيم عيد: الهوية والقلق والإبداع، ط 1، جمهورية مصر العربية، القاهرة، 2002، ص 18.

⁴ أبو البقاء الكفوي: الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1991م، ص 961.

⁵ الحسين الزاوي: الهوية وفلسفة اللغة العربية، ط 1، منتدى المعارف، بيروت، 2014، ص 16.

كما ذهب "أليكس ميكشلي" إلى القول إنّ الهوية «وحدة من المشاعر الداخلية التي تتمثل في الشعور بالاستمرارية والتمايز والديمومة والجهد المركزي؛ وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتميز عن سواه ويشعر بوحدته»¹.

2- الهوية في المنظور النفسي:

يختلف مفهوم الهوية في الشقّ الفلسفي عن مفهومها في الدراسات السيكولوجية والأنثروبولوجية؛ فكل علم ينظر إليها من زاوية رؤية معينة، ومنظور خاص يختلف عن زاوية رؤية العلم الآخر، لذلك يقول: "نور الدين أفاية" إن: «إشكالية الهوية ضمن تطور الحياة النفسية تبرز بشكل جزئي، أثناء المراهقة (...) فعملية اكتساب الهوية لا ينبغي أن تبدلنا في الاحتفال الساذج بالدمج المستمر لذات فردية أو جماعية وحسب، بل تتجلى أيضا في ذلك القرار المعلن عنه، والسري في كثير من الأحيان بالقيام بفعل تدمي تفكيكي، لهذا تتأرجح الذات بين الإحساس المؤلم بتبعيتها لما هو سائد والاعتراف به كواقع وبين الانصات إلى رغبات الجسد السالبة»²

تعتبر هذه المرحلة -مرحلة المراهقة- بمثابة منطقة جذب واستقطاب لمختلف العوامل النفسية، والبيولوجية، التي يمر بها الفرد من أجل اكتساب هوية شخصية (رغبات مكبوتة)، لتعرض هذه الهوية إلى نوع من التدجين حسب قول: "أفاية" أو الغزو من طرف سلطة أعلى، مؤسسة ذات نسق نظامي، وتصورات مسبقة، إنه صدام الهويات، هوية مرغوب فيها، وأخرى مفروضة من الخارج ومفروضة في الداخل (ذات الفرد)، "إن هوية الفرد يستمدّها من المجتمع، ولا يمكن أن يكتسبها إلا من خارجه، إذ أن المجتمع هو الذي يفرض عليه هو يته من خلال الموقع الذي يحدده للفرد داخل النسيج الاجتماعي العام."³

وبذلك تقول "سعيدة بن بوزة": «أن إشكالية الهوية وتجلياتها في حياة الفرد ترتبط بمرحلة المراهقة وما يرافقها من تغيرات فيزيولوجية، تنعكس بدورها على شخصية الفرد الذي يمر بأحرج المراحل وأصعبها، حيث تتمزق الذات بين هوية موروثية يكتسبها الفرد من وسطه الصغير وهو الأسرة والوسط الكبير أو العام وهو المجتمع وبين هوية مكبوتة والتي تكون في غالب الأحيان ملغاة من طرف المجتمع ومسكوت عنها، إنها الهوية الطابو Tabou Identité.»⁴

¹ أليكس ميكشلي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط 1، 1993، ص 29.

² محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف (في المرأة، الكتابة والهامش)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ت، ص 19.

³ المرجع نفسه: ص 20.

⁴ سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي دراسة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1 2016 ص 25.

كما يرجع مصطلح الهوية أيضا إلى العالم النفسي " أريك أريكسون" الذي يعتبر بأن هوية أو ذاتية الفرد تكمن من خلال الخصائص النوعية للفرد التي تميزه عن غيره، فقد جعل أريكسون هذا المفهوم بمثابة المحور الأساسي في تصوراته النفسية فقد تطرق إلى الحديث عن هوية الأنا، فيعرفها بأنها: " ذلك " الشعور بالهوية الذي يهيئ القدرة على تجربة ذات الفرد كشيء له استمرارية وكونه هو نفس الشيء ثم تصرف تبعاً لذلك."¹ وبالعودة إلى أعمال "فرويد" نجد قد قدم طروحات عدة، خاصة حول موضوعة النفس وما يخالجها ويعتريها من اضطرابات، وحالات مرضية وما شابه ذلك فنجده راح يحدد الذات إلى ثلاثة عناصر: الهو ، الأنا، الأنا الأعلى». هذه العناصر التي تتشكل وفقها الذات الإنسانية، والتي من خلالها وبواسطة تفصل إلى مستويات دون الانحسار في الفردية الواحدة، وهذا يبين لنا أن "فرويد" قد حاول تكسير هذه العلاقة التي تربط الوحدة بالهوية في الحياة النفسية، فالأنا ليست هي بالذات بالضرورة، والذات لا يمكن تحديدها إلا داخل إطار علائقي بالآخرين.²

3- الهوية من المنظور الاجتماعي:

يختلف مفهوم الهوية في منظورها السوسولوجي اختلافا كبيرا عن ما تناولناه في الفلسفة أو علم النفس، فالهوية تحت هذه الرؤية تتميز بصفة الشمولية؛ لأنها تعني مجموعة من الصفات أو السمات مجتمعة في كيان هو يأتي واحد و«إن كل حديث في المفهوم العام، الجمعي والبسيط عن الهوية يستدعي حضور مجموعة من العناصر يضعها أسسا تقوم عليها الهوية وهي: الدين، العادات والتقاليد والبقعة الجغرافية»³.

فيرى علم النفس الاجتماعي بأنه من الممكن وجود ارتباط وثيق بين الهوية الفردية والجماعية، أي وجود علاقة تفاعل بين الانتماءات الفردية والجماعية. فالاتجاه الفردي يحيل إلى مفهوم الذات، في حين الاتجاه الاجتماعي محدد من خلال نسق المعايير. وغيرها من المجموعات الاجتماعية الخاصة بالانتماء، لذلك فإن "تاجفل" يشير بشكل خاص إلى أن هوية فرد ما ترتبط بالمعرفة التي يمتلكها هذا الفرد بشأن انتمائه إلى بعض المجموعات الاجتماعية، وبالذات الانفعالية والتقييمية المترتبة عن هذا الانتماء.⁴ فالهوية تقاطع مع العديد من التخصصات وهذا ما يوصلنا إلى نتيجة بأن الهوية تملك أهمية كبيرة بالنسبة لأي اختصاص معين، سواء أكان في ميدان العلوم الاجتماعية، أو الإنسانية، أو الفلسفة.

¹الحسين الزاوي: الهوية وفلسفة اللغة العربية، ط1، منتدى المعارف، بيروت، 2014، ص19.

²محمد نور الدين أفاية: الهوية والاختلاف (في المرأة الكتابة والهامش)، ص17.

³سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف، ص26.

⁴الحسين الزاوي: الهوية وفلسفة اللغة العربية، ص20.

هذا الصدد يؤكد "كلود ليفي شتراوس" Straus أن: «موضوع لا يقع عند مفترق طريق واحد فقط، ولكن عند مفترق طرق عديدة إنه يحظى باهتمام كل الاختصاصات تقريبا ويحظى أيضا باهتمام الأنثروبولوجيين، كما يحظى في الأخير باهتمام الأنثروبولوجيين خاصة جدا...»¹.

بأن الهوية لا تقتصر على اختصاص معين أو على صنف من الدارسين، وإنما تشمل العديد من التخصصات وكل الدراسات وكل الباحثين، وعلى هذا يمكن اعتبار الهوية والثقافة ركيزتين أساسيتين لأي نظام سياسي.

ويقول "محمد سبيلا" في محاولة إعطاء مفهوم للهوية إنها بالمنظور السوسيوولوجي: «مجموع السمات الاجتماعية والثقافة والحضارة المميزة لجماعة بشرية معينة، والهوية بهذا المعنى تطال عدة مستويات وتشمل عدة مكونات أي أنها مفهوم واسع يشمل كافة النشاط البشري وندرج عبر عدة مستويات: الهوية البيولوجية، الهوية الاجتماعية، الهوية الثقافية»².

لكن ما يمكن التنبه إليه هو أن «عملية تشكل الهوية الإثنية تم تضمينها ضمن مفهوم التقدمية والتطورية، بالنسبة للفرد فإنه يتحرك من الاتجاهات غير المكتملة وغير المراجعة في مرحلة الطفولة إلى مرحلة الاستكشاف إلى الحصول على هوية إثنية آمنة في آخر مرحلة المراهقة»³.

لذلك فالهوية الإثنية أو العرقية التي تعطى لكل فرد منا بواسطة جماعته التي ينتمي إليها هي تلك الهوية التي اكتسبها من الجماعة نفسها، وسيعمل على الدفاع عنها طيلة حياته.

فالهوية الاجتماعية حسب علماء الاجتماع هوية مكتسبة، يكتسبها الفرد بواسطة الناس أو المجتمع الذي يعيش فيه، وذلك من خلال التفاعل داخل هذه المنظومة الاجتماعية، وهذا الفرد «الذي يفعل حركيته أفراد المجتمع، فتماهى هو ياتهم الفردية بخصوصياتها الشديدة نفسية كانت أو جسدية مع الهوية الاجتماعية التي لا تخص فردا لوحده بل مجموعة كبيرة من الأفراد والتي يمكن أن نطلق عليها الهوية الوطنية أو القومية في مقابل الهوية الفردية»⁴.

¹الحسين الزاوي الهوية وفلسفة اللغة العربية، ص:21.

²محمد سبيلا: مدارات خطاب الهوية، ندوة علمية تحت عنوان: الهوية والتقدم، جامعة الزيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدين، تونس، أبريل 1993م، ص43. نقلا عن: المرجع نفسه، ص26.

³منير غسان وآخرون: الهوية الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام (دراسات في إشكالات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية)، دار النهضة العربية، بيروت، ط:1، 2002م، ص104. نقلا عن: سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف، ص26.

⁴سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف، ص27.

المبحث الأول: أبعاد وأنواع ومقومات الهوية

المطلب الأول: أنواع الهوية

أ- الهوية الوطنية (القومية):

تعتبر الهوية من أهم الخصائص المميزة للمجتمع، فهي تحدد التطلعات المستقبلية للمجتمع، ويلحظ عليها معالم التطور والتقدم من خلال سلوكيات الأفراد وإنجازاتهم المختلفة، وأيضا كل الحوافز والمؤهلات التي تدفع بالإنسان إلى تحقيق طموحاته وأهدافه، وبناء على ذلك فالهوية الثقافية لشخص ما، أو مجتمع ما لا بد أن تركز على معايير تستمد منها قوة، من معايير أخلاقية واجتماعية وكل ما له صلة، أو يساهم في تحديد توجه شخص ما، أو مجتمع ما.

وإذا كانت الهوية الثقافية هي ممارسة خطابية، فإن الهوية الوطنية «هي أيضا أنظمة من التمثيلات الثقافية (...) من خلالها تكون الهوية الوطنية مستنسخة باستمرار عبر الفعل الخطابي. ولأن الثقافة ليست كيانات جامدة بل هي تشكل عبر ممارسات متغيرة تعمل على عدة مستويات اجتماعية مختلفة، فإن أي هوية وطنية معينة تفهم عبر الفئات الاجتماعية المختلفة (...) وتمثيلات الثقافة الوطنية عبارة عن مقتطفات من الرموز والممارسات التي تبرز في ظروف تاريخية معينة لأغراض خاصة من قبل فئات محددة من الناس.»¹ يتبين لنا من خلال هذا القول بأن الهوية الوطنية هي أداة للجمع بين التعددية الثقافية، وهذه الأخيرة هي نتيجة للسلطة أو الممارسة الخطابية التي تسد ثغرة الاختلافات الثقافية، ومن ثم فإن الهوية الوطنية الموحدة تجسد لنا الحكايات، الصور، والطقوس في ظل الظروف التاريخية حتى تمثل لنا التجربة المشتركة والتاريخ المشترك لأمة ما .

إن الحديث عن الهوية الوطنية هو حديث في الأصل عن هوية كبرى تضم جزئيات والمتمثلة في الهوية الثقافية، والدينية، والاجتماعية، واللغوية، لأن ما يميز وطن عن آخر هو هذه السمات؛ فالثقافة والدين، والمجتمع واللغة هي التي تجعل هذا الوطن يختلف عن ذلك. والحديث عن الهوية الوطنية إنما يوجد عندما تكون هناك

حالات حرية أي في حالة وجود خطر يهدد هذا البلد، أو محاولة المساس بهذا الوطن وبأمنه وبأمن جميع شعبه وأفراده وسلامتهم، لأن الهوية الوطنية تتحدد من خلال الوطن والمقصود من الهوية الوطنية وهي مجموع المقومات التي يشترك فيها أبناء وطن ما والتي تجعلهم يختلفون عن غيرهم في أوطان أخرى، هذه المقومات والسمات تشكل

¹ كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، ت/ جمال بلقاسم، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2018، ص385.

وجودهم وكيانهم وشخصيتهم المتميزة وتتحدد الهوية الوطنية من خلال أن «قوامها الأرض والجغرافيا»¹. والتي تعد أهم المقومات.

يذهب "أحمد بن نعمان" إلى تعريف الهوية القومية بقوله: «مجموعة من الصفات أو السمات الثقافية العاملة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون، ويتميزون بصفاتهم تلك عن سواهم من أفراد الأمم الأخرى»². ف «مفهوم هوية مجتمع ما متصل إلى حد كبير بما يسمى بمصطلح شائع أكثر هو القوميات، وهو مفهوم حديث نسبيا ومرتبطة أساسا بتميز القوميات في القرن التاسع عشر»³. فالمصطلح الأسبق في الظهور مصطلح الأمة قبل ظهور مصطلح القومية الذي ظهر مع تحرر الشعوب في القرن التاسع عشر؛ لكن هذا لا يعني اختلافهما حيث «يتداخل مفهوم الهوية مع مفهوم القومية، ففي وقت سابق على سبيل المثال للتعبير على هوية الأمة العربية، فإننا نقول مباشرة القومية العربية، أما اليوم ومع سقوط مشروع وحدة الأمة العربية تحت شعار القومية العربية، استبدل القومية بمصطلح الهوية وأصبح السائد اليوم هو خطاب الهوية لا خطاب القومية»⁴.

ومن هذا المنطلق: "تؤكد سرديات الأمة على التقاليد واستمرارية الأمة كوجود داخل طبيعة الأشياء، جنبا إلى جنب مع الأسطورة التأسيسية للأصل الجماعي، وهذا بدوره يفترض وينتج رابطا بين الهوية الوطنية والشعب الأصلي، النقي، أو التقاليد الشعبية، وعلى هذا النحو، يمكن إدراك الأمة كجماعة متخيلة، والهوية الوطنية كبناء يتم تجميعه من خلال الرموز والطقوس فيما يتعلق بالأصناف الإدارية والإقليمية. ومن ثم، فالهوية الوطنية مرتبطة جوهريا بالأشكال الاتصالية ومبنية من خلالها"⁵. نستنتج من هذا القول بأن قصص أمة ما أو أدبها وثقافتها الشعبية هي جوهر استمرارية الأمة إلى جانب الأسطورة، وهذه الثنائية هي التي ولدت التجانس بين الهوية الوطنية واقع الأصيل المتمسك بعاداته، وتقاليدته وتاريخه العريق، وكل حيثيات ماضيه ليصنع حاضره، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الهوية الوطنية متولدة عن الأنماط الخطابية من قصص وأدب، وثقافة، وحتى وسائل الإعلام.

¹ عبد الله المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي لأبحاث لدراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط1، 1435/ تموز (يوليو)، 2014م، ص272.

² أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية، دار الأمة، الجزائر، د.ط، 1996م، ص23.

³ سعد الغراب: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1990م، ص12.

⁴ سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف، ص28.

⁵ كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، ص385.

ب- الهوية الاجتماعية:

لقد اهتم علماء الاجتماع بموضوع الهوية ولقد تم دراسته والبحث فيه اذ يرون انه لا يخلو مجتمع بدون هوية اجتماعية ولقد اتفق معظم علماء الاجتماع ومن بينهم "ريچارد جنكز" الذي يرى ان الهوية الاجتماعية هي: «تصورنا حول من نحن ومن الآخرون وكذلك تصور الآخرون حول انفسهم وحول الآخرين». ¹ فهي تلك التفاعلات الخاصة داخل نسبة مجتمعية وبين افراد هذا المجتمع بالخصوص من دين ولغة وعادات رغم الاختلاف بين افرادها «إلا أنها تتشكل فقط على التميز بين هويات مختلفة الجماعات والتي يمكن ربط بأناس آخرين». ² وهذا ما ذهب اليه "ريچارد جنكز" فالهوية الاجتماعية حسبه جزء مكمل للحياة الاجتماعية، ويعتبرها أساس كل أنواع الهويات، لأنها تعزز شعور انتماء الفرد داخل مجتمعه، وبذلك تعتبر جملة من العلاقات الاجتماعية المتضمنة أو المستعبدة وذلك بالنظر إلى الجماعات الأخرى. الهوية الاجتماعية تعني «السمات والخصائص التي تضفي على الفرد من قبل عدد كبير من الأفراد الآخرين والجماعات الأخرى في المجتمع...، وهي هوية اجتماعية معروفة من قبل ممثليها الذي يوافق ويشارك في الحياة الاجتماعية عبر انتماءاته الاجتماعية المتنوعة» ³ لذلك فالهوية الاجتماعية «تشير إلى مجموعة المعايير التي تسمح بتعريف فرد أو جماعة ما على نحو اجتماعي، وهي بالتالي المعايير التي تسمح للفرد باستحواذ وضعية الخاصة في إطار مجتمعه. وبعبارة أخرى تعني الهوية الاجتماعية السمات والخصائص التي تضفي على الفرد من قبل عدد كبير من الأفراد الآخرين والجماعات الأخرى في المجتمع» ⁴.

بمعنى أنها جملة الخصائص المشتقة من معطيات ذات صبغة اجتماعية والتي تعرف بفرد وجماعة هذا المجتمع عند غيرهما من المجتمعات، فتحدد هو يتهما إذ تجعل للفرد مكانة خاصة به في مجتمعه وتربطه بروابط عديدة، فهي إذن: «جملة العلاقات الاجتماعية المتضمنة أو المستعبدة وذلك بالقياس إلى الجماعات الأخرى المكونة للمجتمع (أو المجتمع بوصفه جماعة في لحظة ما، أي جماعة كبيرة جدا على مستوى الأمة أو الحضارة» ⁵ فالهوية الاجتماعية تتمثل في تلك الروابط التي تربط الفرد بالجماعة أو تربط الجماعات بالأمة أو الجماعة الكبيرة وهي علاقات متماسكة ثابتة داخل المجتمع الواحد لأنها تمثل الميزة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع وهذا يحيل إلى وجود مجتمعات أخرى

¹ ريجارد جنكز نقلا عن هارلس وهو لبورن: سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2010، ص 93.

² المرجع نفسه: ص 93.

³ أليكس ملكشيللي: الهوية، تر: علي وطفة، صادر عن دار النشر الفرنسية، ط1، 1993، ص ص 111-112.

⁴ المرجع نفسه: ص ص 111-112.

⁵ المرجع نفسه: ص 114.

مختلفة عن بعضها البعض وكل مجتمع منها يضم أفراداً متلاحمين ومشاركين في خصائص جوهرية فعندما نقوم بعملية تصنيف العالم الاجتماعي إلى مجموعات مختلفة ، فإننا ننزع إلى التوحد بجماعة نتقاسم مع أفرادها الإحساس بالانتماء والشعور بالهوية المشتركة فيما يسمى بجماعة "النحن"، وهو يتنا الاجتماعي تستمد من كوننا أعضاء في هذا اللحن أو بالتعبير الشائع في جماعة داخلية.¹

نجد " دور كهانم " «يعتبر أن الوجود الاجتماعي للأفراد هو يتهم الاجتماعية المرادفة للانتماء إلى فئة ملائمة اجتماعياً، هو ما يرثونه دون رغبتهم، ويشكل سلوكياتهم دون أن يدركوا، فمفهوم الهوية للذات لا ينتمي إلى مصطلحات علم الاجتماع التقليدي وتصبح الهوية الاجتماعية رديفاً للغير.²

3- الهوية الثقافية:

يعتبر مفهوم الهوية نقطة جوهرية في أوساط الدراسات الثقافية، وهي مفهوم يرتبط بالجانب الثقافي فيعرفها «موسى الشرقاوي "الهوية الثقافية" بأنها: «مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة، سواء في الأشياء أو المجتمعات، فللمكان هو يته الخاصة، وكذا بالنسبة للمجتمعات، فلكل مجتمع مميزة وله ثوابته الجغرافية والتاريخية، وموروثاته الثقافية، وبذلك تصبح الهوية الثقافية هي الرمز أو القاسم المشترك الذي يميز فرداً أو شعباً من الشعوب عن غيره»³. ويتضح من هذا القول: أن المجتمعات تختلف باختلاف ثقافتها والاحتكاك الثقافي الذي زادت وتيرته، واستعانتهم بالهوية كوسيلة تحمي ميراثهم الثقافي المهدهد بالزوال، فوجود الهوية يعني وجود ثقافة فلا وجود لأمة بدون ثقافة ولا توجد ثقافة بدون هوية. وهذا يعني أنه «لا ثقافة بغير هوية حضارية، ولا هوية بغير إنتاج فكري»⁴.

تعرف الدراسات الثقافية الهوية على أنها: «إنشاء ثقافياً لأن المصادر الخطابية التي تكون مادة الهوية تعد مصادر ثقافية بطبيعتها، وبشكل خاص، فنحن مشكلون كأفراد داخل عملية اجتماعية يمكن فهمها عادة كمشاقفة، ودونها لا يمكن أن نكون أشخاصاً»⁵. ومعنى هذا أنه يمكن القول بأن الهوية في ظل الدرس الثقافي تفهم من

¹ هاني الجزائر: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب) هلا للنشر والتوزيع، الجزيرة، القاهرة، مصر، ط1، هـ 1432 / 2011م، ص ص 124-123.

² دوركهانم نقلا عن كلود دوبار: أزمة الهويات (تفسير تحول)، تر: رندا بعث، المكتبة الشرقية، لبنان، ط1، 2008، ص 28.

³ موسى الشرقاوي نقلا عن ثناء هاشم محمد: الهوية الثقافية والتعليم في اتع المصري (رؤية نقدية)، مجلة كلية التربية، جامعة بني سويف، عدد يناير، ج1، 2019، ص 128.

⁴ عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي (دراسة توثيق)، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2014، ص 272.

⁵ كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، ت/ جمال بلقاسم، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2018، ص ص 381-382.

خلال العملية الخطابية، التي تقوم على ثنائية الفرد والداخل وامتزاجها بالخارج الخطابي، الذي ينتج عنه واقع الذات وتحديد الهوية الفردية من خلال الممارسة الخطابية، التي تنتج للفرد العالم المعرفي الذي يتركز على المخزون الثقافي. تعتبر الهوية الثقافية ضرورة لا غنى عنها كونها تمثل «حجر الزاوية في تكوين الأمم لأنها نتيجة تراكم تاريخي طويل»¹. إذن فهي الركيزة الأساسية والحصن الحصين في بناء وتشكيل المجتمعات والحضارات؛ إذ لها كامل الصلاحية في تحديد وضبط مصير الفرد والجماعة، لأنها تحدد هو يتهما، ولا ترتبط فقط بالفرد والجماعة؛ إذ إن لها صلة وثيقة بالتاريخ. وهي كما عرفتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- « النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والأفعال الأصلية للفرد والجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والابداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموح الغد»². وبصريح العبارة فإن الهوية الثقافية لها ارتباط وثيق بالهوية الشخصية وذلك باعتبارها محددًا وعاملاً رئيسياً في تكوين هوية الفرد، كما أن الفرد يعد عاملاً رئيسياً في ظهور فكرة الهوية الثقافية، ومادامت مرتبطة بالفرد والفرد مرتبط بالجماعة، فإنها مرتبطة أيضاً بالجماعة، وباعتبار أن الشوع والتعدد خاصية من خصوصياتها فإنها تسهم بشكل أو بآخر في منح الإبداع والاستمرار والتقدم نحو الأمام للجماعة البشرية .

المطلب الثاني: مقومات الهوية وتجلياتها في الأدب

يعتبر مفهوم الهوية من المفاهيم الصعبة التحديد باعتبارها مفهوم متحركاً وديناميكياً لأنه «في حالة بناء تجدد دائمين اعتماداً على الوضعيات التي يكون فيها الأفراد، وكذلك نوعية العلاقات الموجودة بينهم داخل الجماعات، إذ يقوم الشعور بالانتماء برسم وظيفة هامة لتأكيد الهوية ورسم حدودها التي تعرفها وتبلورها»³ ويعتد هذا المفهوم للهوية من المفاهيم التي «أخذت حيزاً كبيراً من تفكير الباحثين، وقد زاد هذا الاهتمام السنوات الأخيرة بظهور عصر الحداثة، حيث غدت الهوية مستهدفاً رئيسياً، وهي التي ينظر إليها كأداة بها في أوضاع التعليمات والمستهدفات، وهنا قد تبرز الانتماءات القبلية والطائفية والدينية والقومية قد تقود إلى الانكفاء على

¹ محمد عابد الماحري مسألة الهوية العروبة والإسلام... الغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط4، 1433هـ/أيلول سبتمبر 2012م، ص11.

² بدر الدين بن بلعباس: شبكات التواصل الاجتماعي والهوية عند الجامعيين الفاييس بوك وطلبة جامعة بسكرة نموذجاً، مذكرة مكملة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 1435-1436هـ/2014م، ص 82.

³ حكيمة بولشعب: تحديات الهويات الثقافية العربية في ظل العولمة، نقلا عن: أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات للمجتمع الجزائري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، الوادي-الجزائر، (د/ت)، العدد01، ص631.

الذات ورفض التعايش وعدم الإقرار بالاختلاف والتنوع، ومن ثم تكون الفرصة لمواجهة الآخر والدخول في صراعات للحفاظ على الهوية.¹

فالهوية الثقافية والاجتماعية تاريخ يبنى أو ينسج وتعريف للذات يميزها في علاقتها مع بقية الكيانات الاجتماعية الأخرى التي تمثل الآخر بالنسبة لها.

ومن ثم فالهوية هي «الذاتية والخصوصية وهي القيم والمثل والمبادئ التي تشكل الأساس لبناء الشخصية الفردية أو المجتمع، وهوية الفرد هي عقيدته ولغته وثقافته وحضارته وتاريخه وكذلك هوية المجتمع، فهي الروح المعنوية والجوهر الأصيل للكيان والأمة»².

فإلى جانب أنها وعي بالذات الفردية هي أيضا وعي بالذات الاجتماعية والثقافية، موسومة بالحركة والتغيير تبعا لتحول الواقع الاجتماعي لكل مجتمع من المجتمعات، إذ أن «الهوية انتماء لغوي وعقائدي وتاريخي وفكري ووطني، على عكس ما يعتقد البعض بأنها انتماء عرقي أو جغرافي، فهي ليست محصورة في الانتماء القانوني للبلد، أو للقوم الذين انحدر منهم الفرد، كان مقطوع العتلة الفكرية والثقافية مع هؤلاء القوم»³.

ولأجل ذلك تمثل الهوية رابطة روحية بين الفرد وأمتة بمقتضاها يسعى إلى إعلان شأن هذه الأمة، حيث تحتم هذه الرابطة على الفرد أن يعيش مدركا لمقومات ذاتية أقتته التي هي في ذات الوقت عوامل تميزها إزاء غيرها من الأمم، وأن يسعى دوما إلى الحفاظ على تلك المقومات في مواجهة أسباب التحلل والاختيار، وذلك إلى جانب اعتزاز الفرد برموز أقتته وإجلالها، فلا وجود لشعب دون هوية، وهذه الأخيرة تقوم على عدة عناصر نوجزها بالذكر فيما:

¹ محمد حسن برغثي: الثقافة العربية والعمولة دراسة سوسيولوجية لآراء المثقفين العرب، نقلا عن: أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات السوسيوثقافية للمجتمع الجزائري، ص 631.

² أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأ أحمد محمد وهبان: الهوية العربية في ظل العمولة (إطلالة على حال الهوية في مصر والعالم العربي)، (د ط)، سلسلة إصدارات الجمعية السعودية للعلوم السياسية بجامعة الملك سعود، صالة والحداثة في ظل التغيرات السوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري، ص 628.

³ عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر، تقدم محمد العربي ولد خليفة، ط2، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص 228.

1- اللغة:

إن أول ما علمه الله تعالى للإنسان هو اللغة بوصفها وسيلة للاتصال والتواصل، أقوله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة.» (سورة البقرة الآية: 31). فكلمة الأسماء التي تشير إليها الآية الكريمة تعني اللغة.

وتعتبر اللغة أول عنصر من عناصر الهوية عبر الأزمنة والعصور، ذلك لأنها «في الأساس هي مستودع قيم الأمة والحافظ لكيانها، والرمز المعبر لحقيقتها، والوعاء الحامل لهويتها وتراثها، فهي روحها وعقلها ووجدانها وأساس وحدها (ووجودها) وعماد تفكيرها ومنطلق نهضتها»¹.

فهو العنصر الوحيد والمركزي الذي جعل الناس جماعة واحدة ذات خصائص محددة ومتميزة بعاداتها وثقافتها وحضارتها، وهذا ما تشير إليه الباحثة لطيفة إبراهيم النجار فتقول: "ترتبط اللغة ارتباطاً قويا هبة الإنسان فهي مكون أساسي من مكونات تميزه عن الآخرين...، هي الوعاء الحافظ لتاريخه وتراثه وهي الرابط المتين الذي يربط الفرد بأمتة وأهله وأرضه فلا شيء كاللغة يعبر عن هوية الناس"²، وهذا تأكيد على التلاحم الحميم بين اللغة والهوية القومية. إضافة إلى ذلك، تعبر اللغة «عن الشخصية لأنها الأداة التي يستخدمها في ممارسة شعائره الدينية، ومن جهة أخرى هي التاريخ الذي يربط ماضي الأمة بحاضرها ومستقبلها»³، فاللغة تمثل إحدى ركائز الهوية باعتبارها أداة للتعبير عن الثقافة والحضارة، وهي التي تتحكم في نقل قيم وتراث وأفكار الشعوب، وتعبّر عن طريقة رؤيتهم للحياة. فاللغة «هي الوطن الذي تربطنا بأهله روابط النسب الثقافي... ومن جهة أخرى هي إحدى الدعائم الثلاث التي تقوم عليها شخصية الوطن والمواطن (الدين، اللغة الوطنية)»⁴.

2- التراث:

هناك ترابط وثيق بين التراث والهوية، فلا هوية بدون تراث تستند إليه، ولا تراث إذا لم يؤسس للهوية، فالتراث والهوية عنصران مثلاً زمان من عناصر الذات ومكونان متكاملان من مكونات الشخصية الفردية والجماعية.

¹ عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر، ص 54.

² نور الدين صدار: دور اللغة العربية في الحفاظ على الهوية القومية وكسب رهانات وتحديات العولمة، د ط، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر، الجزائر، ص 86.

³ عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر، ص 229.

⁴ المرجع نفسه: ص 228-229.

فالتراث بتعريفه الرائج "هو كل ما وصل إلينا في علم من العلوم أو محسوسا في فن من الفنون عنا أنتجه الفكر والعمل في تاريخ الإنسان عبر العصور، فلكل أمة إذن تراثها الذي هو ثمرة فكرها وعقائدها وحصيلتها العقلية والروحية والإبداعي".¹ فهو إذن يعد مظهرا من مظاهر الإبداع الجماعي للأمة خلال تاريخها الطويل، كما يعد التراث أفضل معبر عن الهوية الثقافية للأمة، فهو الماضي الحافل بكل ما تخلله من تطورات في جميع المجالات، وما عايش من أحداث تعاقبت عبر العصور والحاضر بكل تحولاته والمستقبل بكل احتمالاته.

التراث في محتواه يشمل «أشكالا متعددة ثقافية وفنية وفكرية متوازنة من ماضي الأمة القريب والبعيد، وهو عطاء من صنع الإنسان يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وهو يخص التراث المادي وما يشملته من مبادئ أثرية، أو ما تكشفه الحفريات وما تضمنه المتاحف من آثار ممتلئة لعصور مختلفة، ويضم أيضا التراث الفكر النابع من نتاج العلماء والمفكرين والمبدعين». ² لأجل ذلك اعتبر التراث سمة أصلية من سمات الهوية به تكتمل عناصرها، والهوية بدورها معبرة عن التراث وناقلة له وأن الأمم تعرف هويتها التراثية التي تحسدها الثقافة والحضارة، باعتبار أن التراث رصيد إنساني متراكم يعد ثروة الأمة ورصيداها.

وليس التراث أثارا مادية فحسب، كذلك هو كل ما يؤثر على الأمة من تعابير وقيم غير مادية من كالموسيقى والحكايات الشعبية والافكار التقليدية، ولطالما اعتبر التراث ركيزة للأمة وهويتها الثقافية، كما أنه كان متبعا لكثير من الأدباء الذين يهبون منه ، لذلك : « الحقيقة أن التراث يفسر في غالب الأحيان لصالح الهوية والأصول بغرض حفظ الذات من الانسلاخ والذوبان»³ فالتراث له قيم ثقافية واجتماعية ، وهو أشبه بالذاكرة الحية للفرد والجماعة في شعب من الشعوب ، وبالتالي فهو يمثل الهوية ، و« إذا كان من الممكن مراجعة الماضي في سياق ما تكنه الذاكرة البشرية، فهذا يعني أن الذات التي صنعت ماضيها ، تصنع حاضرها أيضا، وتصوغ مستقبلها بعد ذلك، وهذا وفق معطيات الماضي التي تمثل عاملا جوهريا في تحديد مصير الإنسان والشيء التراثي بغض النظر عن أنه هو كل ما يرتبط بالماضي فهو كذلك ما تعتر به الذات البشرية»⁴.

¹ عبد العزيز بن عثمان التويجري: التراث والهوية، دط، منشورات المنظمة، مطبعة إيسيسكو، الربط، 2011، ص14.

² المرجع نفسه: ص ص25-26.

³ فتحي بوخالفة: شعرية القراءة والتأويل في الرواية الحديثة، عالم الكتب الحديث، الجزائر، ط1، 2010، ص 281.

⁴ المرجع نفسه: ص281.

3- التاريخ :

لكل إقليم أو وطن تاريخه الخاص وثقافته المرتبطة بظروفه وعاداته وتقاليده، فهو: «الذي ينسجه ذلك الشعب حامل الهوية من أجل المحافظة على هويته أرضا وقيما، وعادات وتقاليد وأعرافا»¹.

هو «يمثل الذكريات التاريخية التي يعيش عليها وينظر لمستقبله من خلالها»².

يعد التاريخ بمثابة شعور الأمة وذاكرتها فلا تكون الأمة شخصيتها إلا بواسطة تاريخها الخاص، وهذا التاريخ جزء من أجزاء الهوية وحذا من حدودها باعتبارها جزء من المجتمع "فإذا كانت لكل أمة هوية أو نظامها الذي ينمو ويتطور بفعل ظروف الزمان والمكان جميعا، أو بفعل جملة فإن التاريخ سيشكل الروابط القائمة بين أفراد المجتمع الواحد من جانب، الأحداث التي يمر بها الفرد والمجتمع على حد سواء وبين المجتمع وغيره من المجتمعات من جانب آخر»³.

فالعامل التاريخي من هذا المنطلق من أهم عوامل تشكيل الهوية القومية، «فهو الذي يصنع وجدان الأمة ويكون ضميرها ويحدد فلسفتها ويبلور أهدافها، ولكي تكون جماعة من الناس أمة يجب أن تنصهر أولا في بوتقة التاريخ الذي يوحد بين الأهداف وينمي الإحساس بالانتماء»⁴، ومن هذا المنطلق يودي التاريخ دوره في الحفاظ على الهوية أرضا وقيما وعادات وتقاليد وأعراف.

4-الوطن:

الوطن هو الأرض التي يستقر بها الإنسان في مكان الإقامة أو الاستقرار أو التربية، وإن للهوية والوطن علاقة وثيقة الصلة بينهما، فتحديد الهوية يكون من خلال الولاء للوطن والدولة خاصة بعد معرفة الحقوق والواجبات التي يجب أن يمارسها الفرد و بالضرورة يحافظ على كل المكونات الهوياتية لمجتمعه ودولته، «فالوطن بوصفه الأرض

¹ محمد الحنفي: الهوية والعولمة، نقلا عن: أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات لسوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري، ص632.

² عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر، ص 231.

³ الخنساء تومي: دور الثقافة الجماهيرية في تشكيل هوية الشباب الجامعي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة خيضر، بسكرة، 2016-2017، ص ص47-48.

⁴ المرجع نفسه: نفس الصفحة.

أو الجغرافية والتاريخ قد أصبح كيانا روحيا واحدا يعتمر قلب كل مواطن...، وكل مس بالوطن أو الأقلية أو بالدولة هو مس بالهوية الثقافية والعكس صحيح أيضا: كل مس بالهوية الثقافية هو في نفس الوقت من بالوطن والأمة»¹.

5- العادات والتقاليد:

هي «النابعة من تلك القيم، والحاملة لها والعاكسة لمستوى الشعب حامل الهوية الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي»²، فالهوية لا تنفصل عن الثقافة التي تتغذى منها، والعادات والتقاليد هي جزء من ثقافة كل مجتمع من المجتمعات، وهي تختلف من ثقافة إلى أخرى، لذلك فهي تميز كل هوية ذاتية للمجتمع. «فهي مجموعة من الأفعال والأعمال وألوان السلوك التي انشاء في قلب الجماعة بصفة تلقائيا لتحقيق أغراض تتعلق بمظاهر سلوكها وأوضاعها، وتمثل ضرورة اجتماعية تستمد قوتها من هذه الضرورة، لذلك من الصعب على الأفراد الخروج على مقتضياتها»³.

تجليات الهوية في الأدب:

لكل مجتمع هو يته الثقافية وإرثه الحضاري الذي يميزه عن باقي المجتمعات والذي لا يتلاشى لبعده الأمم واختلاف العادات والتقاليد قد «تفهم الهويات داخل الثقافة على أنها أدائية خطابية بمعنى أن الهوية من الأفضل أن توصف كممارسة خطابية تحدث وتنتج ما تسميه من خلال اقتباس وتكرار معايير واصطلاحات معينة، ومفهوم الهوية يستخدم بالأحرى لربط الداخل الوجداني للأشخاص بالخارج الخطابية بمعنى أن الهوية تمثل عمليات من خلالها يتم إنشاء مواقع للذات بشكل خطابي، لتصبح هذه مواقع مسلما بها»⁴.

فبما أن الخطاب أ عن الواقع أو محاكاة له، الأديب هو الذي يحاكي هذا الواقع - فهو ابن بيئته، فالهوية تقوم على أساس التعامل مع الآخر، وذلك من خلال أشكال الصراع التي تطرحها وهي تدل على حريتها وتجعلها حية ولا تتركها حبيسة نفسها، وهذا التفاعل قائم على إثبات الذات «فكان "الأنا" كي ترسم ملامح هويتها

¹ أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات لسوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري، ص 640.

² المرجع نفسه: ص 632.

³ عبد الغني عماد: سوسولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكالات... من الحداثة إلى العولمة، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001، ص 153.

⁴ The sage Dictionary of cultural studies :Chris baker ; sage publication ;london 2011)

تر: جمال بلقاسم، تحت عنوان معجم الدراسات الثقافية، ص. 300

تحتاج إلى مرآة ترى فيها صورة الآخر، بدل صورتها ليطم على أساسها وضع التفاصيل المضادة للصورة المرئية، فالأنا¹ تتحقق من خلال وجود الآخر /المختلف التي تسعى دوما إلى مواجهته والتخلص منه بعدما كان وسيلة لتشكيلها¹.

أي أن الفرد في حاجة إلى استحضار صورة الآخر لبناء صورة الفردية الخاصة، وتحديد ملامح هو يته الجماعية التي ينتمي إليها "فمن الشروط الأولية لبناء وحدة سيكولوجية اجتماعية هو إنشاء صورة الآخر فيفضلها تتحقق نزعة الفرد إلى خلق انتصار بين "النحن" و"الهم" وإلى تهمين الفروق القائمة بين هؤلاء وأولئك²، وحضور الآخر المختلف ضرورة لا بد منها للتعرف على الذات.

ويأخذ الحديث عن الهوية في الأدب حيزا هاما، وخاصة في الرواية لأن الرواية العربية " في خضم معركة لا تزال هي الهوية أو تحقق الذات، وكانت الرواية هي الفن الحديث الأكثر تعبيرا عن تحديات الحداثة في المجتمع العربي، حتى صار هذا الفن سجلا دقيقا للصراع العربي الذي تعرف فيه العرب إلى ذواتهم³."

فسؤال الهوية أحد أهم الأسئلة الراهنة مطروحا في روايات الكتاب وبالبحث في الخطاب الروائي العربي نجد العديد من الخطابات التي تطرح سؤال الهوية والمتحدة في جدلية العلاقة بين "الأنا" العربية و"الآخر" الغربي، وهذا ما يحده على سبيل المثال في كل من روايتي "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، والحلي اللاتيني" لسهيل إدريس، وتصور كلا الروائيتين العلاقة الأنا الشرقية بالآخر الغربي.

«إذا بحثنا عن مدى الوعي بالهوية عند الفرد أو الجماعة فإن الأمر يتعلق بالانتقال من التفرد إلى الأفراد: أي إبراز ما هو مختلف عن الغير، وإغفال ما هو مشابه لهم، وهنا تتأكد أهمية المعطى الثقافي، فإذا كان من الممكن أن تكون الثقافة نبع يغذي الهوية الفردية والجماعية، فإن الهوية تتحول إلى استراتيجية تستخدم الثقافة وحتى تحولها لتصبح مغايرة لما كانت عليه من قبل⁴».

هذا حال الأديب كفرد في جماعة ، وكمعبر عنها ، فقد تبرز هو يته من خلال كتاباته ، وهذه الهوية هي استلها من الواقع المعيش والظروف المحيطة به - باعتبار الأديب ابن بيئته - وهي صانعة للهوية ، وكمثال على ذلك فقد « سعى الأدباء الجزائريون إلى تأكيد هو يتهم الإسلامية العربية الجزائرية في جلت أعمالهم ، حتى تلك

¹ سعيدة بن بوزة: هوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، بحث مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه للعلوم في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008/2007، ص32.

² المرجع نفسه: ص32.

³ ليلي بلخير: إشكالية مفهوم الهوية في الكتابة العربية، مجلة الذاكرة، الجزائر، العدد الثامن، 2017، ص 120.

⁴ محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د/ط)، 2003، ص105.

المكتوبة باللغة الفرنسية إذ ناضل هؤلاء خير نضال بمحاربة الاستعمار بلغته التي اعتمدها سلاحا ضده فهذه "نجمة" لكاتب ياسين ومحمد ديب في ثلاثيته ... وغيرهم ممن اعتدوا بالكلمة لفرض صوتهم ، وكانت كتاباتهم مستوحاة من واقع الشعب الجزائري الطامح لإعادة هو يته»¹.

فهوية الأديب تظهر من خلال أسلوبه والعبارات التي يستخدمها، وهذه الأخيرة ترتبط بثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه الأديب والنظر في مقوماته الوطنية التي يتقيد بها من لغة ودين وتاريخ وأعراف وتقاليد وقيم، تراث وهذا الأخير فيه ما هو مادي وما هو معنوي من أغان وحكايات شعبية وغيرها، تتوارثها الأمة عبر الأجيال.

المطلب الثالث: الخصائص الأساسية الهوية

- الاستمرار: بحيث أن الفرد يعي ذاته ويشعر بأنه هو مع مرور الزمن.
- التماسك: إنه التمثل المستقر الذي يحمله الفرد عن ذاته ويكونه الآخرون عنه.
- التفرد: هي أن يشعر الفرد بأصالته، وبرغبته في الاختلاف، وبأنه فريد من نوعه ولا يشبهه أحد. هذا العامل ذو حدين، فقد يتحول ضمن ظروف محددة وخاصة إلى انغلاق كامل على الذات.
- التنوع: وهي تتمثل في أننا عدة أشخاص في الشخص نفسه، في الوقت نفسه، هذا يرتبط بمدى تقبلنا لجملة من الأدوار الاجتماعية التي اخترناها أو التي أناطها الآخرون بنا. وهذا العامل ذو حدين أيضا إذ بدلا من أن تكون الأدوار المتعددة مصدر غنى، فمن الممكن أن تؤدي إلى تشتت الذات.
- تحقيق الذات من خلال العمل: هي أن نكون ما نعمله حيث تحقق الذات عن طريق الأنشطة والفعاليات التي نؤديها أو حتى المهنة التي نزاوها.
- تقدير الذات: أي تنمية الإحساس بالقيمة الشخصية وبالذات، وذلك في نظر الفرد نفسه أو في نظر الآخر.²

¹مازية حاج علي: الهوية والاستعمار، ندوة المخير: الهوية في الأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر- بسكرة، ص2، من موقع: Lab.univ-biskra.dz.

²طالب علي: الهوية، بيت المواطن للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2016، ص39.

الفصل الثاني: تجليات أزمة الهوية في كتاب الهويات القاتلة

توطئة.

المبحث الأول: أزمة الهوية وإشكالية الانتماء في كتاب الهويات القاتلة.

المطلب الأول: مفهوم الهوية وتشكل عناصر الانتماء عند أمين معلوف.

المطلب الثاني: أزمة الهوية والدافع إلى الصراع الهوياتي.

المبحث الثاني: مرجعيات تشكل الهوية عند أمين معلوف.

المطلب الأول: المرجعية اللغوية (أزمة الهوية اللغوية).

المطلب الثاني: المرجعية الدينية (أزمة الهوية الدينية).

المطلب الثالث: المرجعية الثقافية (أزمة الهوية الثقافية).

توطئة:

يعتبر كتاب (الهويات القاتلة) لأمين معلوف من الدراسات الهامة، في موضوع الهوية، التي صدرت في نهاية القرن الماضي. وقد صدر في خضم الأوضاع العالمية الجديدة التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفياتي، سابقاً، وانتهاء الحرب الباردة وتنامي ظاهرة العولمة. وهذا التوقيت له دلالاته وهو يلفت انتباه الباحث ويدعوه إلى فحص هذا الكتاب وتأمله والوقوف، ملياً، عند أفكاره وأبعاده لاكتشاف حجم التأثير وطبيعة الانعكاسات التي تلقاها أمين معلوف من هذه الأوضاع العالمية الجديدة ورؤيته لموضوع الهوية ولكثير من المواضيع المرتبطة به. ويتكون الكتاب من اربعة فصول

فنى الكاتب يؤكد في هذا الفصل المعنون بـ " هويتي وإنتمائي " أن الهوية لا تعطى مرة واحدة وإلى الأبد إلى الفرد، بل تتشكل من عدة انتماءات تتبدل ويختلف تراتب عناصرها طوال حياته وتالية الهوية قابلة للتغير والتبدل حسب تأثير الآخرين بشكل أساسي على عناصرها. وأن الفرد يميل بطبعه فيما يخص تعريف هويته وتحديد انتمائه بأكثر عناصر هويته عرضة للخطر -خطر الإهانة أو السخرية أو التهميش أو القمع... إلخ-

ويرتكز الكاتب في هذا الفصل على خطر "تأكيد الهوية" وكيف من الممكن أن تتحول إلى "أداة حرب"، وتأكيد الهوية هو اجتماع واتحاد وتعاضد فئة تتشاطر في تراتب الانتماء أو على الأقل في الانتماء الأكثر عرضة للخطر، فيشكلون مواجهة للطرف الآخر ويرون تأكيد هويتهم عملاً ضرورياً.

وعليه لا يجد الكاتب بأن تسمية "الهويات القاتلة" تسمية مبالغ فيها، إذ يقول في بداية كتابه: "أتحدث في بداية هذا الكتاب عن هويات قاتلة. ولا يبدو لي أن هذه التسمية مبالغ فيها، ذلك لأن المفهوم الذي أفضحه، والذي يختزل الهوية إلى انتماء واحد، يضع الرجال في موقف متحيز ومذهبي ومتعصب ومتسلط، وأحياناً انتحاري، ويحولهم في أغلب الأحيان إلى قتلة أو إلى أنصار للقتلة. إن رؤيتهم للعالم مواربة ومشوهة. فالذين ينتمون إلى جماعتنا ذاتها هم أهلنا الذين نتضامن مع مصيرهم، ولكننا لا نسمح لأنفسنا في الوقت ذاته بأن نكون طغاة تجاههم، وإذا بدوا لنا فاترين نتنكر لهم ونرهبهم ونعاقبهم بوصفهم خونة ومارقين. أما بالنسبة للآخرين، الموجودين على الضفة الأخرى، فلا نسعى أبداً لأن نضع أنفسنا مكانهم، نمتنع عن التساؤل عما إذا كانوا غير مخطئين تماماً حول هذه المسألة أو تلك، ولا نسمح لأنفسنا أن تهدأ بشكاواهم والامهم والمظالم التي كانوا ضحيتها.

كما يرى أمين معلوف في هذا الفصل الذي سماه بـ "عندما تأتي الحداثة من الآخر" بأن الدراسات والآراء التي تتحدث عن مدى تأثير الأديان والعقائد على الأفراد والشعوب، ما هي إلا دراسات تقود إلى نظرة أحادية للواقع، مما تؤدي إلى تشويبه وتالية ضبابية النتائج التي قد تتأتى عن تلك الدراسات، وعليه يتناول في الباب الثاني "عندما تأتي الحداثة من الآخر" من كتابه، مدى تأثير الشعوب والتاريخ على الأديان والعقائد، إذ يرى معلوف أن جميع الأديان والعقائد قادرة على إستيعاب متطلبات عصرها والتطور، ويورد معلوف العديد من الأمثلة التاريخية على هذا التأثير، إذ يرى أن كل عقيدة أو ديانة في كل عصر تحمل بصمات عصرها وزمانها و مكانها، وإن تقييم التصرفات الناجمة عنها يتم وفقا لقرنها ومدى قدرة المجتمع على تطوير الديانة. ويكمل في موضع آخر من الفصل "..." تستطيعون قراءة عشرة مجلدات ضخمة من تاريخ الإسلام منذ البدايات ولن تفهموا شيئا مما يجري في الجزائر. إقرؤوا عشر صفحات عن الاستعمار والتحرر فتفهمون ما يجري بصورة أفضل."

والملاحظ أن معلوف يتساءل في بداية هذا الباب المعنون بـ "زمن القبائل الكوكبية"، عن الأسباب التي أدت بالمجتمعات إلى اختلاف أصولها في شتى أنحاء العالم على تنامي الانتماء الديني لديهم وتأكيد بطرق مختلفة في هذه المرحلة، في حين تراجع هذا الانتماء فيما سبق، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة منها: تراجع العالم الشيعي ثم انهياره، الأزمة التي تصيب النموذج العربي، والمأزق التي آل إليها حال مجتمعات العالم الثالث. كما يؤكد على تنامي وتطور مختلف مجالات الاتصالات و"ما اتفق على تسميته بالعمولة"، إذ أن المعارف تتقدم بصورة سريعة جدا يواكب هذا التقدم انتشار هذه المعارف مما يجعل المجتمعات الإنسانية أقل تمايزة، مما يدفع البعض أن يدافع عن عناصر هويته الأهم برأيه مثل اللغة والدين، كرد فعل ليؤكد على اختلافه ويدافع عن هذا الاختلاف. ومن هنا يعلل معلوف تسمية "زمن القبائل الكوكبية"، إذا يرى أن جمعات المؤمنين في مضمون هويتها أشبه بالقبائل)، وفي سرعة انتشار أفكارها (بالكوكبية). يوضح معلوف في موضع آخر من هذا الفصل أن:

لا أحلم بعالم لا مكان للدين فيه، وإنما بعالم تنفصل فيه الحاجة إلى الروحانية عن الحاجة إلى الإنتماء. بعالم لا يستشعر فيه الإنسان، مع بقائه متعلقة بمعتقداته وعبادته وقيمه الأخلاقية المستلهمة من كتاب مقدس، بالحاجة إلى الانضمام إلى اخوته في الدين. بعالم لا يستخدم فيه الدين وشيخة بين اثنيات متحاربة، لا يقل أهمية. وإذا كنا نريد حقا تجنب أن يستمر هذا الخليط بتغذية التعصب، والرعب، والحروب الإثنية، يجب التمكن من اشباع الهوية بطريقة أخرى.

كما يبرر لنا معلوف تسمية الباب الأخير من بحثه بـ "ترويض الفهد"، والذي يرى أن ترويض رغبة الهوية يجب أن لا يعالج بالاضطهاد والتواطؤ، والتعامل والممارسات التمييزية تقدر خطيرة وإن كانت تمارس لصالح جماعة عانت من الاضطهاد بسبب هويتها، لما في ذلك من من استبدال ظلم بظلم آخر، ولما للأمر من تأثيرات سلبية تحفيزية للكراهية والتطرف، وري أن كل مواطن يجب أن يعامل بوصفه مواطنة كامل الحقوق مهما كانت انتماءاته واختلفت. فيقول: "أوشكت أن أعطي هذا المقال عنوانا مزدوجة: أو كيف نروض الفهد. لماذا الفهد؟ لأنه يقتل إذا طاردناه ويقتل إذا تركناه طليقة، والأسوأ أن نتركه في الطبيعة بعد أن نكون قد جرحناه. ولكنني اخترت الفهد لأننا نستطيع أن نروضه أيضا".

وفي خاتمة كتابه "الهويات القاتلة"، يتأمل ويتمنى معلوف، أن يمسك صدفة حفيده الكتاب حين يصبح رجلا، فيقلبه قليلا، ثم يعيده إلى مكانه، "مستغربا أنه في زمن جده كانت هناك حاجة بعد لقول مثل هذه الأشياء.

المبحث الأول: أزمة الهوية واشكالية الانتماء في كتاب الهويات القاتلة

المطلب الأول: مفهوم الهوية وتشكل الانتماء عند أمين معلوف

عالج أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة جملة من الاشكالات والقضايا التي تتعلق بالهوية والانتماء والملاحظ في كتابات أمين معلوف الروائية والسياسية ككتابتنا الهويات القاتلة تطرقه دوماً إلى قضية الشرق والغرب (الاسلام والمسيحية) ومحاولته نبد العنصرية والعنف والتعصب المترتب عنها. لذلك يدعو إلى الحوار الحضاري والديني والثقافي واللغوي بين الحضارات لذلك سنحاول التطرق إلى أهم الافكار التي اوردها الكاتب في كتابه الهويات القاتلة بالدراسة والتحليل وهذا يقودنا الى طرح هذا التساؤل كيف عرف أمين معلوف الهوية؟ وهل يمكن توريثها أم أنها مكتسبة؟ وماهي أهم العناصر التي تشكل هوية ما؟ وهل لغياب أحد هذه العناصر تأثير على هويتنا وانتمائنا؟

والملاحظ أن الكاتب في محاولته تناول مفهوم الهوية لم يتبع مفهوم الهوية فلسفياً أو إجتماعياً ولا حتى نفسياً. فهو يرى بأنه تم التطرق لها من طرف الكثير من الفلاسفة أمثال سقراط وفرويد كما أنها بحاجة لكفاءة وشجاعة كبيرة.

يرى معلوف أن لكل شخص بطاقة هوية تحتوي على بيانات المعنى من اسم ولقب ومكان الازدياد وزمانه وصورة وبصمة وعلامات خصوصية جسدية... الخ فهي ضمان باختلافه عن كل أشخاص في العالم القريين والبعيدين لذلك يقول: «إن هويتي هي التي تعني أنني لا أشبه أي شخص آخر». فمعلوف يركز على خاصية فريدة في تحديد مفهوم الهوية وهي خاصية عدم التماثل فحسبه تعد شرطاً أساسياً من شروط المفهوم وذلك في قوله: «فهل ثمة حاجة فعلاً للخوض في استدلالات مطولة من أجل الإثبات أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد كائنات بشريان متطابقان؟ وحتى لو توصل العلماء في المستقبل إلى «إستنساخ» البشر، كما يخشى البعض، فهذه النسخ البشرية لن تكون متطابقة تماماً إلا ساعة «ولادتها»، لأنها ستختلف وتتباين حالما نخطو خطواتها الأولى في معترك الحياة»¹ ومنه فأزمات الهوية لم يعد لها علاقة بالمسائل الفكرية والثقافية، وإنما تعدت ذلك مع العلوم الحديثة للتوصل إلى أزمات أخرى للهوية أشد تعقيداً من تلك المسائل النظرية الخاصة بها.

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، تر: نهلة بيضون، دار الفارابي-بيروت-لبنان، ط 1، 2004، ص 19.

ولقد ركز معلوف في مفهوم الهوية على خاصية عدم التماثل ولقد اعطى مثالا لذلك بأنه حتى ولو تم نسخ كائنات بشرية مستقبلا والذي أصبح محتمل الحدوث مع هذا التطور العلمي الهائل، إلا أنه استبعد إمكانية وجود شخصان متماثلان مئة بالمئة وهذا ما يميز هوية كل فرد فحسبه حتى ولو استنسخ البشر سيبقى لكل شخص هويته الفردية المميزة له عن غيره من الأفراد يقول: «وتتألف هوية كل إنسان من جملة عناصر لا تقتصر بديهيها فحسب على تلك الواردة في السجلات الرسمية، ومن بينها، بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس، الانتماء إلى مذهب ديني، وجنسية وأحيانا جنسيتين ومجموعة إثنية أو لغوية، وأسرة قد تكبر أو تصغر، ومهنة، ومؤسسة، ومحيط اجتماعي معين... غير أن القائمة تطول ولا تنتهي من الناحية الافتراضية: فقد يشعر المرء بانتماء قوي، بهذا القدر أو ذاك، إلى إقليم أو قرية أو حي أو عشيرة أو فريق رياضي أو جماعة مهنية، إلى سبة أصدقاء، أو نقابة أو شركة أو حزب أو جمعية أو كنيسة رعوية أو مجموعة من الأشخاص يتقاسمون الهويات نفسها أو الميول الجنسية عينها أو المعوقات الجسدية ذاتها أو يعترضون للمضايقات نفسها.»¹ ومن خلال هذا نرى أن مفهوم الانتماء مفهوم واسع كون أن لكل شخص هوية مكونة من عناصر تمكنه من التماثل والانسجام مع الآخرين وهناك العديد من العناصر الأخرى بإضافة لما ذكرنا سابقا في ما يخص بطاقة الهوية التي من خلالها توضح هوية شخص وانتماءه دون الشعور بذلك. فهناك انتماء بحكم اللغة، وهناك التوجه الديني والسياسي، والثقافي أيضا كاتتماءات لحزب معين وتشاركنا فيه. أو تشاركنا في الانتماء لنفس المؤسسة وغيرها... فكل شخص له هذه الخاصية الانتمائية التي أشار إليها معلوف ولقد ذكر هذه النقاط من أجل توضيح المساحة التي يحتلها الانتماء بجميع عناصره المكتسب والفطري. ومنه فالهوية في نظر معلوف هي حالة خاصة وهذا ما أراد قوله في الصفحات الأولى من كتابه «الهويات القتالة» وقد نبه على أنه حتى ولو كان للعديد من الأشخاص انتماء محدد ويتشاركون في عدة عناصر كاللغة والدين معناه أنهم يحملون هوية واحدة فالاختلاف يطرق كل هوية و يكون في تركيبية كل منها وذلك من خلال قوله: «وفي نهاية المطاف، قررت المجازفة، اقتناع أمني بأن كل شخص حسن النية يسعى للقيام «بامتحان الهوية» الخاص به، سوف يكتشف سريعا أنه يمثل حالة خاصة أسوة لي. والبشرية جمعاء مجرد حالات خاصة، والحياة تولد اختلافات، ولن كان هنالك «تكرار»، فهذا التكرار لا يكون متطابقا تماما، إذ أن كل شخص، دون استثناء، يتمتع بشخصية مركبة، ويكفي أن يطرح بعض الأسئلة لإمالة اللثام عن تصدعات منسية، وتشعبات مفاجئة، ليكتشف بأنه كائن معقد، وفريد، وغير قابل للاستبدال.»² ففي نظر معلوف كل شخص يعد حالة خاصة مع استحالة تماثله فيها مع شخص آخر. فالكتاب هنا يريد ان يقدم الهوية على أنها

¹ أمين معلوف: الهويات القتالة، ص 19-20

² المرجع نفسه: ص 33.

تحمل خاصية عدم التماثل رغم تزايد عدد البشر إذ أن كل شخص يمتلك داخل هويته خصوصية تميزه، فالجميع حالة خاصة كونه فريد ولا يستبدل.

ولقد ركز أمين معلوف في تقديمه مفهوم الهوية والانتماء على نقطة هامة وهي المحيط الاجتماعي على اعتبار أن الهوية والانتماء يتحددان من خلال البيئة والمحيط الذي يعيش فيه الفرد خلال علاقته مع الآخرين وذلك في قوله: «إن عناصر هويتنا الموجودة أصلاً فينا عند ولادتنا ليست كثيرة... بعض الصفات الخارجية، والجنس، واللون... وحتى هذه العناصر ليست كلها فطرية. فبالرغم من أن البيئة الاجتماعية ليست هي التي تحدد الجنس بالطبع، فهي تحدد معنى هذا الانتماء؛ فولادة أنثى في كابول أو في أواسل ولا يكتسب الدلالة نفسها، لأن المرأة لا تعيش انوثتها، ولا أي عنصر من عناصر هويتها، بالطريقة عينها في هذه الحالة أو تلك...»¹

فالمحيط الاجتماعي له دور كبير في تحديد هويتنا كما أنه يرى بأن الهوية لا تعطى دفعة واحدة إذ أن العناصر التي تلد معنا غير كافية لتحديد الهوية إذ ثمة عناصر نكتسبها.

ومنه فالمحيط الاجتماعي لا يحدد هويتنا بصورة تامة. فقط يمكنه التحكم في انتماء الأشخاص ولقد ضرب معلوف مثالا عن الفتاة التي تلد في كابول عكس الفتاة التي تلد في أواسلو كونها أكثر تحرراً من الفتاة الكابولية بحكم الأوضاع في بلدها وكان من الممكن ان تعيش انوثتها بطريقة مغايرة لو ولدت مكان الفتاة في أواسلو فمثل لذلك بانها عبارة عن لعبة ذهنية وذلك في قوله: «ولقياس ما هو فطري حقاً بين عناصر الهوية، ثمة لعبة ذهنية معبرة للغاية، وهي تقوم على تصور طفل رضيع فصل عن محيطه منذ ولادته، ونقل إلى بيئة مختلفة عن بيئته الأصلية، ثم مقارنة «الهويات» المتنوعة التي قد يكتسبها، والمعارك التي يتوجب عليه حوضها، وتلك التي سيبقى بمنأى عنها... هل من حاجة للتحديد بأنه لن يتذكر قط «دينه» الأصلي، ولا «أمته»، ولا «لغته»، وأنه قد يقاقل بعزم وضراوة أولئك الذين كان من المفترض أن يكونوا أهله؟»²

فمعلوف هنا يريد القول ان الهوية مكتسبة أكثر من أنها موروثية وهذه اللعبة الذهنية تؤكد حجته فهو يرى بأن عناصر الهوية نسبية وهذا ما نراه في أيامنا هذه. فالطفل الرضيع المسلم الذي يلد في بلد أجنبي. هل سيرث ديانته الإسلامية؟ أم أنه يستطيع اعتناق ديانة أخرى؟ وهذا يقودنا الى أن للمحيط الاجتماعي له دور فعال في تحديد انتماء الشخص وكذلك هويته من خلال تفاعلنا مع الآخر فيقول: «إن صحة ما نقول نستند إلى

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 37.

² المرجع نفسه: ص 39.

أن ما يحدد انتماء شخص إلى إحدى الجماعات هو تأثير الغير بصورة أساسية، أي تأثير الأقربين -الأهل، المواطنين والإخوة في الدين -الذين يحاولون استملاكه، وتأثير الآخرين الذين يسعون لاستعباده. ويجب على كل واحد منا أن يشق طريقه بين الدروب التي يدفع إليها، والدروب التي يحظر عليه سلوكها، أو التي توضع له في العراقيل عند كل خطوة يخطوها، وهو لا يكون نفسه دفعة واحدة، بأن «يعي» ماهيته بل يصبح ما هو عليه، ولا يكتفي بأن «يدرك» هويته بل يكتسبها خطوة خطوة.¹

وعليه فمعلوف يرى بأن الآخر هو من يحدد هويتنا وانتمائنا كونه مدفوع إلى طرق معينة كما تجنبه طرقاً أخرى ومنه فالهوية لا تتشكل باختيار ورغبة الشخص وإنما بإرادة أهله وأقاربه.

ولقد حاول معلوف أن يتطرق إلى الهوية العرقية فأشار بأنها تستطيع تحديد انتمائنا مثلها مثل العناصر الأخرى كالمحيط الاجتماعي والجنس واللغة فهو يرى بأن العرق ولون الشخص من شأنهم تحديد انتماء الشخص من خلال نظرة وتصنيف الآخرين كما أشار إلى قضية العنصرية والتمييز تلك القضية الكلاسيكية التي ظهرت منذ الأزل وخير مثال على ذلك العنصرية ضد السود في أمريكا.

ولقد حاول معلوف أن يبين أن الهوية العرقية يختلف تحديدها حسب الوسط الاجتماعي فبالرغم من أن اللون يعد عنصر هام من عناصر تحديد الهوية إلا أنه حاسم في بعض الأحيان فيقول: «وتصح الملاحظة فيما يتعلق باللون، فإن يولد الإنسان أسود البشرة في مدينة نيويورك أو لاغوس أو بريتوريا أو لا وندا لا يكتسب الدلالة نفسها، بل أكاد أقول إن اللون ليس هو نفسه على صعيد الهوية. فبالنسبة إلى الطفل الذي يبصر النور في نيجيريا، لا يعتبر العنصر الحاسم في تحديد هويته كونه أسود وليس أبيض، بل كونه ينتمي إلى قبيلة اليوروبا وليس إلى عشيرة الهاوسا. وفي جنوب إفريقيا، كون إنسان أسود أو أبيض يبقى عنصراً مهماً في تحديد هويته، ولكن انتماءه اللاتيني يوازيه أهمية.»²

فحسب أمين معلوف إن الزنوج المولودين في عدة مدن عالمية متفرقة كنيويورك أو لاغوس أو لاوندا لا يكتسب الدلالة نفسها عكس ولادته في جنوب إفريقيا فالتشابه بين أولئك الزنوج يقلل إذا لم ينفي هذا العنصر الهوياتي اللون فولادة زنجي في أمريكا تعني أنه أسود عكس ولادته في نيجيريا ينظر إليه على حساب انتماءه لإحدى قبائل اليوروبا أو الهاوسا فالعرق حسبه يعد: «أحد أقوى علامات الهوية الإنسانية وأضعفها أيضاً إذ

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 39-40.

² المرجع نفسه: ص 37-38.

يصعب تفسيره والتعرف عليه و من الأصعب الحفاظ عليه و قد أصبح لون البشرة في هذه الأيام العلامة المميزة للأعراق.»¹

ولقد تطرق أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة إلى قضية التهجين والتي يمكن استعمالها في أماكن دون غيرها. ففي أمريكا مثلا هناك نظرة صريحة للتهجين اذ لا يشفع للشخص الزنجي كون أحد أجداده أبيض البشرة ففي حالته يكون أسود فالإنسان «ينظر إليه ومعاملته على أنه مؤشر أساسي على الهوية والوطنية والجماعة ويمكن للعرق أن يحدد أو يؤثر في الكيفية التي ترى بها الناس أنفسهم وكيف يعرفهم الآخرون والمجموعات التي تعد منتمية إليهم.»²

ولكن ما يثير الدهشة أن النظرة نفسها تسود في أنغولا أو أي دولة إفريقية فإذا كان أحد أجدادك من البيض فأنت مهجن وهذا ما دفع أمين معلوف إلى طرح هذا التساؤل: «لماذا يؤخذ مفهوم الخلاسية في الحسبان في بعض البلدان دون غيرها؟ ماذا يكون الانتماء الإثني حاسما في بعض المجتمعات، وليس في غيرها؟»³

ولقد تحدث أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة عن الصراع الهوياتي وعدد أهم الأسباب التي تجعل الأشخاص يدافعون عن هويتهم وانتماءاتهم ضد الآخرين فراح يحاول اعطاء حلول قصد تجاوز هذه الصراعات. فأصحاب الهويات المركبة تواجههم مشاكل عديدة في حياتهم وحتى لو كانوا يتشاركون في بعض العناصر معهم كالوطن أو اللغة أو الدين وحتى لو كان هناك ميول للوطن الأم إلا أنه لن يكون مكتمل في نظر أبناء بلده فهو في نظرهم أجنبي حتى لو اشترك معهم في بعض الروابط ونفس الشيء في البلد المتبني. فضرب مثلا لذلك من خلال ذلك الشاب الجزائري المولود في فرنسا لأبوين جزائريين فهو يحمل داخله انتماءين ويفترض به أن يكون قادر على الإضطلاع بما على حد سواء. فيقول: «إنها تجربة غنية ومثمرة لو شعر هذا الشاب بحرية عيشها إلى أقصى حدودها، وبالتشجيع على الإضطلاع بكل تنوعها. وعلى نقب ذلك، قد يكون مساره صدمة قاسية لو اعتبره البعض خائنا ومرتدا كلما أكد هويته الفرنسية، ولو وجد نفسه ضحية التحجر والريبة أو العداة كلما جاهر بأصوله الجزائرية.»⁴ فمعلوف يرى أن هذا الشاب ونظرا لانتمائه المزدوج فتأكيده لهويته الفرنسية على سبيل المثال يجعل

¹ أنيا لومبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط: 1، 2007م، ص129.

² طوبي بنيت وآخرون: مفاتيح إصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2010م، ص476.

³ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص38.

⁴ المرجع نفسه: ص10.

منه خائناً ومرتباً بالنسبة لإخوته الجزائريين والعكس صحيح ومنه ففي كلتا الحالتين لا يمكنه الاضطلاع بأي انتماء الأول والثاني ولقد اعطى معلوف أمثلة عن أشخاص يمتلكون انتماء مزدوجاً وهوية مركبة تحمل عناصر حميدة وجيدة إلا أنها من الممكن أن تصير سلاحاً فتاكاً ضد حاملها فيقول: «ويعتقد الوضع كذلك في الضفة الأخرى من نهر الراين. وفي هذا الصدد يخطر ببالي وضع التركي الذي ولد منذ ثلاثين عاماً قرب فرانكفورت، وعاش طيلة حياته في ألمانيا التي يجيد التكلم بلغتها وكتابتها أفضل من لغة أبويه. إنه لا يعد ألمانيا بالنسبة للمجتمع الذي بناه؛ ولا يعتبر تركيا حقاً بالنسبة إلى مجتمعه الأصلي. ويفترض المنطق السليم أن يستطيع هذا الشخص المجاهرة بانتمائه المزدوج، ولكن لا شيء في القوانين ولا في الدهنيات يسمح له بأن يعيش بانسجام هويته المركبة»¹.

فهذا التركي الذي ولد في ألمانيا منذ ثلاثين عاماً لا هو تركي في نظر المجتمع الذي ينتمي إليه، ولا هو ألماني في نظر البلد الذي ولد فيه.

كما يرى معلوف أن هناك الكثير من الأشخاص الذين يمتلكون انتماءً مزدوجاً وهوية مركبة تجعلهم أمام خيارات قاتلة ومثال ذلك الشخص المولود في إفريقيا بالضبط في رواندا من أم هوتو وأب توتسي أو العكس فهذا الشخص مند الولادة يحمل انتماء متعارضاً وذلك لأن الوالدين منتميان إلى قبيلتين متعاديتين فمن شأن ذلك أن يسبب له اضطراباً في هويته فيقول في كتابه: «فأنا أقر بأن الأمثلة الأولى التي اخترتها تتميز بشيء من الخصوصية، فهي تتعلق جميعها بأشخاص يحملون في أعماقهم انتماءات تتصادم اليوم تصادماً عنيفاً، أشخاص حدوديين نوعاً ما، تخترقهم تصدعات إثنية ودينية أو غيرها. ويتحتم على هؤلاء الأشخاص بحكم وضعهم هذا بالذات والذي لا أجرؤ على اعتباره «مميزاً»، أن يقوموا بنسج العلاقات، وتبديد سوء التفاهم، ومحاججة البعض وتهدئة البعض الآخر، وتذليل العقبات، ورأب الصدع»².

ومنه وجب على هؤلاء الأشخاص محاولة إصلاح ذواتهم وفتح ذراعيهم لتقبل الآخر قصد إزالة سوء الفهم والدعوة إلى الحوار والتعايش.

ولقد دعى أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة الإضطلاع بالانتماء المزدوج قصد تفادي إراقة الدم ووقوع الخلاف واللجوء إلى العنف فراح يحاول توجيهنا إلى عدم التشدد بانتماءنا والتعامل معه بأريحية فيقول: «غير أن العودة قليلاً إلى بعض الحالات التي ذكرتها في مستهل الكتاب كحالة رجل لأم صربية وأب كرواتي، الذي

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 10_11.

² المرجع نفسه: ص 12.

لن يشارك قط في أي مجزرة إثنية أو أي «تطهير» لو استطاع القبول بإنتمائه المزدوج؛ وحالة ذلك الرجل لأم هوتو وأب توتسي، الذي لن يكون قط سفاحا ولن يقترف إبادة جماعية لو شعر بنفسه قادرا على استيعاب هذين «الرافدين» اللذين جاء به إلى هذا العالم؛ وحالة ذلك الشاب الفرنسي من أصل جزائري الذي ذكرته آنفا، فضلا عن ذلك الشاب الألماني من أصل تركي، اللذين لن ينخرطا قط في صفوف المتشددين لو توصلا إلى عيش هويتها المركبة بسلا. ¹

فمعلوف يرى وجوب الإضطلاع على الإنتماء المزدوج وتقبله لأنه ليس من صنعنا أو اختيارنا، إنما هي تلك الظروف التي اجبرت الشخص على حمل هذا الإنتماء. من أجل تفادي المجازر التي تحدث تحت اسم الهوية.

المطلب الثاني: أزمة الهوية وإشكالية الإنتماء والدافع إلى الصراع الهوياتي

لقد تناول أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة أهم الأسباب التي تزيد وتشعل الأزمة الانتمائية وما ينتج عنها من صراع، كما تطرقنا إلى فهمنا الخاطيء للهوية.

أ- الإنتماء المضطهد وسيطرته:

يرى معلوف أن السبب الاول للصراعات التي تحصل في المجتمعات هو ذلك الشعور بالتهديد اتجاه أي من إنتماءاتنا سواء كان دينيا أم وطنيا فبمجرد أن نشعر بمساس انتماءنا من طرف آخر تكون ردة فعلنا عنيفة اتجاه المسبب في ذلك وهذا ما يؤدي إلى صراعات فهو في نظرنا نوع من السلب الهوياتي فحسب معلوف يقول: «لقد عرفت كل العصور أشخاصا اعتبروا أن هنالك إنتماء أساسيا يسمو على كافة إنتماءات أخرى مهما كانت الظروف، يمكننا أن ندعوه بصورة مشروعة هوية، والامة بالنسبة إلى البعض، والدين أو الطبقة بالنسبة إلى البعض الآخر. ولكن يكفي أن نستعرض النزاعات المختلفة الدائرة في أرجاء العالم لتتحقق من أن لا إنتماء يسمو بالملق. فحيث يشعر الناس بأن إيمانهم مهدد، يختصر إنتماء الديني هويته بكاملها. أما إذا كان الخطر يحدق بلغتهم الام، أو مجموعتهم الإثنية، فهم يقاتلون بضراوة إخوانهم في الدين.» ²

كما يشير معلوف إلى مشكلة أخرى من مشاكل الهوية وهي أنه حتى تلك العناصر المشتركة فيما بينهم من دين ووطن لا تمنع من حدوث صراع وعنف وحتى الدول المتجاورة فالأترك والأكراد مسلمون على حد سواء

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 54_55.

² المرجع نفسه: ص 23-24.

ولكنهم لا يتكلمون اللغة نفسها، فهل يكون نزاعهم أقل دموية؟ والهوتو والتوتسي كاثوليكيون ويتحدثون اللغة نفسها، ولكن هل شكل ذلك رادعا لهم لعدم التناحر والاقتيال؟ والتشيكيون والسلوفاكين كاثوليكيون بدورهم، فهل أسهم ذلك في تعزيز عيشتهم المشترك؟¹

وهذا يدل على أن الإلتساب إلى إلتماء واحد لا يمنع بالضرورة الصراع بينهما مثال ذلك ما حدث مع ليبيا من انقسام وكذلك الهند وباكستان فالانقسام الذي يحصل هناك على الرغم من تشاركهم في نفس الوطن ونفس اللغة والدين لم يمنعهم من التصادم وعليه فالإلتماء إلى اللغة والدين والوطن لا يحدد ذلك فاسوق كل هذه الأمثلة لأشدد على أن الهوية ليست ثابتة بل هي تتحول مع الوقت وتحدث في السلوك البشري تغيرات عميقة.²

ففي منظور أمين معلوف هوية كل شخص تتسم وتتميز بعدم الثبات تتغير بفعل الزمن كما تتغير التصرفات أيضا وخير مثال على ذلك ذلك الصربي المسلم الذي يغير نظرتة لإسلام كل مرة فتارة يقول أنه يوغسلافي وتارة مسلم وتارة أخرى بوسني وعليه فالأحداث هي التي غيرت من نظرتة وهذا ما يقودنا إلى إدراك أن جميع إلتماءات متساوية. وعليه ردة فعلنا في حال مساسه أو اضطهاده تدفعنا للتمسك به. فالإلتماء المعرض للخطر يبقى الأكثر تأثيرا في نظرنا «فغالبا ما ينزع المرء إلى التماهي مع أكثر انتماءاته تعرضا للتجريح. وحين لا يقوى على الدفاع عن نفسه أحيانا، يخفي هذا الإلتماء الذي يبقى متواريا في أعماقه، قابعا في الظل، ينتظر ساعة الانتقام. وسواء اضطلع المرء بهذا الإلتماء أم قام بإخفائه، سواء تحفظ عن إعلانة أم جاهر به على الملأ، فهو يتماهى معه، وعندها، يسيطر هذا الإلتماء المستهدف _ اللون، الدين، اللغة، الطبقة الإجتماعية ..._ على الهوية بكاملها، ويولد تضامنا لدى الأشخاص الذين يتقاسمون، فيتجمعون ويتحركون ويشجع بعضهم البعض، ويهاجمون «الفريق الآخر، ويصبح تأكيد الهوية بالضرورة فعلا شجاعا وعملا تحرريا...»³

والملاحظ أن الذين يتشاركون معنا في هذا الإلتماء -سواء أكان لنا معهم نفس اللون أم الإلتماء الديني ذاته، فسيكونون أكثر تعصبا اتجاه هذا سواء أكان لنا معهم نفس اللون أم الإلتماء الديني ذاته، فسيكونون أكثر تعصبا اتجاه هذا فيلجئون للعنف من أجل الدفاع عن انتماءهم دون معرفة العواقب الوخيمة الناتجة عن ذلك.

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 24.

² المرجع نفسه: ص 24.

³ المرجع نفسه: ص ص 41-42.

ب- هوية أمين معلوف المركبة :

حاول الكاتب اللبناني الفرنسي أن يتناول مفهوم الهوية والانتماء في كتابه "الهويات القاتلة" انطلاقاً من هويته الشخصية، وقد عنون الفصل الأول من كتابه بـ: "هويتي وانتماءاتي" حيث تحدث فيه بشكل مفصل عن قضية الهوية الفردية أو الشخصية ومدى تأثير الهوية الجماعية في تشكل الهوية الأولى وقدم «الكثير من الإشكاليات النظرية التي جعلته في هذا الكتاب يتعد عن أسلوب السرد والمخيال الروائي؛ إلى المنهج الثقافي في تحليل أنثروبولوجي لمفهوم الهوية، انطلاقاً من ذاته أولاً، ثم من وطنه لبنان ثانياً، وصولاً إلى بعض الأفكار العامة حول مستقبل الهوية في عصر العولمة. فقد جعل من حياته الشخصية أمودجاً حياً لمادة تحليلية جعلت من كتابه هذا منظومة ثقافية سجالية بامتياز»¹.

ولعل السبب الذي ساهم في تأليفه لهذا الكتاب تلك الأحداث التي عايشها في لبنان وهروبه من الحرب الأهلية التي اشتدت أنداك إضافة إلى التأثير التي أحدثته العولمة في هويتنا وفي حياتنا يُظهر «أن ما أورده أمين معلوف عن حياته، يشكل قناعة راسخة لديه حول أهمية مفهوم "الهويات القاتلة" في تاريخ لبنان، قد غادر وطنه لبنان مكرها بسبب الحرب الأهلية التي تجاوزت الخمسة عشر عاماً أمضاها في فرنسا بشكل دائم، وبات من الصعب عليه العودة مع أفراد عائلته مع التغيير الجذري في مجرى حياتهم، وبسبب الحنين الجارف أصدر كتابه هذا»².

فالأحداث التي عاشها لبنان ساهم في أحداث تأثير على نفسيته بشكل كبير كونه شهد بداية الحرب الأهلية أمام ناظره لهروبه بعدها إلى فرنسا.

¹ حفاوي بعلي: تمثلات المنوع والمقوم في الرواية العربية المعاصرة، دار البيازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية، 2015، ص 17.

² المرجع نفسه: ص 172.

المبحث الثاني: مرجعيات تشكل الهوية عند أمين معلوف

حاول الكاتب اللبناني الفرنسي أمين معلوف من خلال كتابه الهويات القاتلة تبين هويته الفردية فكما أشرنا انفا أنه لبناني ينتمي إلى عائلة مسيحية وبصورة أقل إلى طائفة الروم الكاثوليكية فهي تعد طائفة أقلية ضمن الطوائف المسيحية. نشأ في مدرسة فرنسية رغبة من أمه ولم تدفعه للمدرسة الإنجليزية إتباعا لبعض التقاليد أنداك، عاش طفولته في لبنان وترى فيه حتى السابع والعشرين من عمره ليغادر إلى بلد آخر هربا من الحرب الأهلية في ذلك الوقت ليكمل باقي حياته في المنفى، وبالتالي أصبح ينتمي إلى بلدين ولغتين وثقافتين وتقاليد أكثر بحكم هويته المركبة وبهذا سنحاول تناول بعض المرجعيات التي شكلت هوية أمين معلوف وكيف أسهمت بعض المرجعيات في بناء شخصيته من جميع جوانبها الأدبية والفكرية والسياسية ومن أجل ذلك سنقوم بمقارنة وجهة نظره مع إدوارد سعيد نظرا لكونهما مشرقيا ولديهما هوية مركبة تمتزج فيها اللغة والثقافة والدين .

المطلب الأول: المرجعية اللغوية (أزمة الهوية اللغوية)

أ- الهوية واللغة:

تعد اللغة أحد العناصر الأساسية في تحديد الهوية، فهي "الحاملة للهوية، حيث تقوم بوظيفة أساسية في تكوين النظام الاجتماعي على اعتبار أن كل نظام اجتماعي ينتج أشكالاً ثقافية تتجلى في العادات والمؤسسات وفي طبيعة العلاقات الاجتماعية"¹ إضافة إلى أنها أحد المقومات الأساسية، التي تكون الهوية الجماعية ودعم الهوية الفردية، وبما أن المغرب العربي نتج عن حالاته الخاصة ونتيجة لتفاعلاته التاريخية والثقافية والحضارية، قد لعبت اللغة دورا هاما في توضيح وتبيين الإرتباك التي تواجهه الهوية. وللغة الأهمية الكبرى في منح

الفرد القدرة على التعبير عن هويته فيرى دومينيك شوفلييه: DOMINIQUE CHEVALIER

العربي عنده " من يتكلم العربية، هذه اللغة التي ارتقت إلى مستوى التقديس مع الوحي القرآني ... بل إنها تمثل ذاكرة تمنح للفرد عناصر الوعي للتعبير عن هويته قياسا إلى الجماعة التي يتحرك داخلها، وإلى إمكان التسامي عن هذا الحد الاجتماعي داخل الإسلام باعتباره ديننا كونيا"² فاللغة والدين من أهم العناصر التي تساهم في تكوين هوية الفرد.

¹ محمد نور الدين أفاية الهوية والاختلاف في المرأة، الكتابة والهامش، افريقيا للنشر، دط، دت، ص27.

² محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي. المركز الثقافي العربي. ط1. 2000، ص19.

الحديث عن اللغة حديث عن ذلك النشاط الإنساني الذي يحدث بين شخصين أو أكثر، تصدر تلك اللغة عن طريق الأصوات البيولوجية المسموعة أو عن طريق الحروف المكتوبة، كما سمح ظهور حقل البحث السيميائي في إنتاج نوع آخر من اللغة وهي لغة الرموز والإشارات، واللغة في كينونتها تحمل علاقة تكامل وتبادل مع الهوية، فلغة الفرد قد تدل على ثقافته وإيديولوجيته، ولتحديد تلك العلاقة يستوجب أولاً إعطاء بعض التعاريف التي ساهمت في إبراز خصائص اللغة، حيث جاء في معجم المصطلحات الأدبية لنواف نصار أن اللغة هي "ذلك المظهر من السلوك الإنساني الذي يضمن استخدام أصوات معبرة في قوالب ذات معنى يمكن تمثيلها في رموز مكتوبة لتشكل وتعبّر وتوصل الأفكار والمشاعر، وهي مجموعة من الكلمات وأنظمة استعمالها، تكون شائعة بين شعب أو مجتمع أو أمة أو أهل منطقة جغرافية ما"¹، لا يخفى هذا التعريف عن اجتهادنا السابق فنواف ناصر يرى في اللغة أنها ذلك الفعل الإنساني الذي يتضمن استعمال أصوات تحمل معنى تخص هذه اللغة بمجتمع من المجتمعات أو دولة أو مكان جغرافي ما، ويحدد الناقد مجموعة من الخصائص الأخرى التي تميز اللغة في النقاط التالية:

- يمكن أن تشمل اللغة تلك الرموز اللغوية التي تأتي بطريقة إنسانية غريزية.
- هي نظام من العلامات التي تستعمل كوسيلة لإيصال العواطف والأفكار كلغة الحب ولغة الفن ولغة الرياضيات...
- هي أسلوب كتابة مثل قولنا: لغة الشعر
- هي أيضا وسيلة الاتصال بين الحيوانات كقولنا لغة الطيور²

هذا الكلام عن اللغة يحيلنا إلى زعيم علم اللغة الحديث: "فرديناند ديسوسير" الذي يعد من أوائل المتطرقين إلى اللغة وعلاقتها بالكلام واللسان والمجتمع، من خلال ثنائياته الشهيرة اللغة والكلام، فاللغة عنده نشاط خاص بالفرد أي هي ملكة فردية" تنطوي على سلسلة من العناصر، التي تؤثر بعضها في البعض الآخر... نظر إلى اللغة على أساس أنها كيان مستقل، لا يمكن تجزئته وعزل عناصره، ومن ثم البحث في هذه العناصر في عزلتها التاريخية"³، ومن هنا أخذت البنيوية خصائصها من خلال عزل اللغة عن سياقها الخارجية، أما الكلام عنده فهو

¹ نواف نصار: معجم المصطلحات الأدبية، دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، ط.1، 2009، ص278

² المرجع نفسه: ص 278

³ فردناند دي سوسير: علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، د.ط، 1985، ص09

يخص جماعة معينة، أي هو ملكية جماعية يتشكل من تراسبات المجتمع، وهو في حديثه عن الكلام يقترب من تمييز علاقة اللغة بالهوية لأنه بالكلام نفهم الهوية التي ينتمي إليها المتكلم، واللغة إذا نظرنا إليها من زاوية الهوية لا ننظر إليها على أنها أداة تواصل فقط" بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهوية وتطويرها أو على العكس من ذلك تدهورها وتحللها، إضافة إلى أنها أحد أركانها وأنحاءها الكبرى¹، والعلاقة بين الهوية واللغة قد تكون في بعض الأحيان علاقة تنافر، وتاريخ الإنسان مليء بمثل هذا النوع من العلاقة نأخذ على سبيل المثال الإمبراطورية الإمبريالية الفرنسية، وكيف حاولت تقويض اللغات الأصلية الموجودة في مستعمراتها وخاصة في الجزائر، حيث حاربت اللغة العربية بكل الوسائل الممكنة وحاولت استبدالها باللغة الفرنسية لغة الأمة الفرنسية، طبعاً محاولته باءت بالفشل ولكن في المقابل أنتجت هذه السياسة خللاً في الهوية اللغوية في الجزائر، فالبلد انقسم إلى فئتين، فئة ذات لسان فرنسي، وفئة محافظة على تراثها اللغوي أي اللغة العربية، لنعيش صراعات بين هاتين الفئتين لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا.

ب- مفهوم الهوية اللغوية:

الهوية اللغوية قوة داخلية تربط الفرد أو الجماعة بلغة بعينها، وهي شكل من أشكال الهوية يتنوع مثلها إلى هوية لغوية فردية وهي شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة كلامية ووعيه بهذا الانتماء وبالعلاقة التي تربطه بلغة الجماعة، وهوية لغوية اجتماعية هي أفراد الجماعة (إثنية/وطنية/قومية) بأن لغة بعينها هي اللغة الرابطة بينهم والمعبرة عن انتماءهم للجماعة، وبواسطتها أدوا أو يؤدون أدوارهم الحضارية ماض وحاضر ومستقبل وعليه فهي حاملة تراثهم الثقافي الموروث عن الأجداد، وهي أداة التفاعل والتشارك بينهم والكفيلة بالمحافظة على وحدة الجماعة واستمرارها وتطورها وصياغة نتاجها الثقافي. ووعي أفراد الجماعة بالدور الذي أدته لغة بعينها في تشكيل الجماعة ودورها في استمرار الجماعة والتعبير عنها هو جزء من وعيهم الكامل بذات الجماعة الذي يشكل هويتهم الاجتماعية. وللهوية اللغوية جانبان:

- جانب تصوري: يتمثل في وعي أفراد الجماعة بانتمائهم للجماعة الكلامية واعتزازهم بهذا الانتماء وباللغة ذاتها.

- جانب تفاعلي: يتمثل في الدور الذي تؤديه اللغة في الجماعة والذي يتحدد بمدى استعمالهم لها في جوانب الحياة

¹ مجموعة مؤلفين: اللغة والهوية في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط.1، 2013، ص 52

المختلفة.

وإذا كانت اللغة مكوناً من مكونات الهوية الاجتماعية فالهوية اللغوية هي وعي أفراد الجماعة بهذا المكون وأهميته في تشكيل الجماعة ماض وحاضر ومستقبل، وينمي هذا الوعي اعتزازهم باللغة وباستعمالها ويقوي في أنفسهم الرغبة في تعلّمها وتعليمها لأبنائهم ويدفعهم لتطويرها وترقيتها؛ فكلّما قويت الهوية اللغوية وزاد وعي الجماعة بأهمية اللغة واعتزازهم بها وباستعمالها والعمل على تطويرها، وكلّما ضعفت الهوية اللغوية لدى أعضاء الجماعة ضعف اعتزازهم بها وقل استعمالهم لها في مناحي الحياة المختلفة واستعاضوا عنها باللغات الأجنبية. كما تتأثر الهوية اللغوية بالهويات الأخرى كالهوية الدينية إيجاباً وسلباً، وتؤثر بدورها في الهوية الاجتماعية كلّها إيجاباً وسلباً.¹

ج- التعدد اللغوي:

واجه الكاتب عدة تعقيدات هويته ومن أهم هذه التعقيدات نجد أن اللغة شكلت مشكلة وارتباكاً فكونه مسيحي ولغته الأم العربية أي لغة الإسلام فهي حسبه أحد التناقضات التي شكلت هويته «فالتحدث بهذه اللغة ينسج عندي وشائج مع كل الذين يستعملونها يومياً في صلواتهم، والذين، بأغلبيتهم الساحقة، يعرفونها أقل مني؛ فعندما نكون في آسيا الوسطى، وملتقي شيخاً فقيهاً على عتبة مدرسة تيمورية، يكفي أن نحاطبه بالعربية ليشعر هو بأنه في أرض صديقة، وليبوح بمكنونات قلبه بطريقة لن يجرؤ على القيام بها بالروسية أو الانكليزية».²

فامتلاك الكاتب لهذا التعدد اللغوي يجعله ينتمي إلى كل الذين يستعملون اللغة العربية وكذلك الفرنسية وإلى جميع الأشخاص الذين يستعملونها معاً وكل انتماء من هذه الانتماءات يمثل له خاصية معينة. يتشابه مع أشخاص ويختلف مع البعض الآخر فقد ولد الكاتب في لبنان ولغته الأم العربية إذ أنها كانت الوسيلة الأولى لاكتسابه للأدباء الذين تأثر بهم بالعربية ومنهم دumas ودنكر ورحلات جلفر ومن ثم فإن امتلاكه للغتين يجعله يمتلك التعددية اللغوية من جهة ومن جهة أخرى خصوصية الرابط الانتمائي الذي يجعله يتشارك في الانتماء اللغوي مع كل الذين يستعملون هذه اللغة. ولقد ضرب مثالا عن العجوز العلامة من آسيا الوسطى والذي لا رابط يجمعهما باستثناء اللغة التي جمعتهم تحت انتماء لغوي واحد رغم اختلاف هويتهما ويضيف «فهذه اللغة

¹ سعاد بضياف، لبوخ بوجلين: أثر الهوية اللغوية في تطور اللغة العربية، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح وجامعة باتنة 2، الجزائر، العدد 25، جوان 2016، ص 197.

² أمين معلوف: الهويات القتالة، ص 28.

المشتركة بيني وبين أكثر من مليار شخص آخر غيرنا نحن الإثنين. ومن جهة أخرى، فانتمائي إلى المسيحية—سواء كان هذا الانتماء دينيا في العمق أم سوسيلوجيا فحسب، فهذا ليس بيت القصيد— يولد بدوره علاقة وطيدة بيني وبين المسيحيين في العالم والبالغ عددهم زهاء المليارين. وثمة أشياء كثيرة تفصلني عن كل مسيحي، وكل عربي، وكل مسلم، غير أن لي مع كل واحد منهم قرابة، دينية وفكرية من ناحية، ولغوية وثقافية من ناحية أخرى.¹

فاللغة عنصر من عناصر تشكل الهوية لدى الكاتب، ويمكنها أن تكون عنصرا مكتسبا كالكاتبه اللغة الفرنسية والانجليزية على خلاف اللغة العربية التي التصقت به منذ ولادته نظرا لخلفيته العربية. ولكونه ولد في جو وبيئة عربية وعاش طفولته فيها. ويمكن أن تكون عنصرا من عناصر الانتماء اذ من خلالها تتشكل هويته المركبة دو الانتماء المزدوج. ولقد إضافة أنه يأتي من عائلة لها تراث عريق في قوله: «هل أتحدث عن جذبي التركية وزوجها الماروني المصري، أو عن ذلك الجد الذي مات قبل ولادتي وقيل لي إنه كان شاعرا وليبرالي التفكير وربما ماسونيا، وفي مطلق الأحوال، مناهضا عنيفا للإكليروس؟ هل أستحضر من بين أسلافي ذلك العم كان أول من نقل موليير إلى العربية واقتسبه إلى خشبة مسرح عثماني عام 1848؟»².

وإذا ذهبنا إلى الكاتب الفلسطيني الأمريكي "إدوارد سعيد" والذي بدوره يمتلك هوية مركبة مثل كاتبنا "أمين معلوف" نجد أنهما يتقاطع ويتماثل معه في العديد من النقاط منها التعددية اللغوية فقد نشأ سعيد على لغتين فيقول: «فأنا لم أعرف أي لغة لهجت بها أولا: أهى العربية أم الإنجليزية، ولا أي منهما هي يقينا لغتي الأولى. ما أعرفه

هو أن اللغتين كانتا موجودتين دوما في حياتي. الواحدة منها ترجع صدى الأخرى، وتستطيع كل منهما ادعاء الأولوية المطلقة من دون أن تكون هي فعلا اللغة الأولى. وأنا أعزو مصدر هذا الإضطراب الأولي إلى أمي التي أذكر أنها كانت تحدثني بالإنجليزية والعربية معا.»³

ف"إدوارد سعيد" الذي يزيد في خاصية الاسم المركب عن معلوف

نشأ نشأة بريطانية فاكنتسب من خلال ذلك لغة وثقافة ومجموعة من التقاليد الإنجليزية بحكم النشأة لذلك أشرنا أنه يتقاطع مع معلوف في عدة نقاط فهو أيضا مدفوع بواسطة والدته لتعلم الإنجليزية فكان الموجه نفسه مع

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 28.

² المرجع نفسه: ص 31_32.

³ إدوارد سعيد : خارج المكان ، تر : فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2000. ، ص 08.

اختلاف طريقة التوجيه بين الوالدين وهذا ما يبين الارتباك الذي عانى منه سعيد بسبب هذا التعدد والازدواج في هويته اللغوية فيقول: «العالم الذي تنتمي إليه عائلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولية الحميمة- وهي كلها عربية - من جهة وعالم تربيته الكولونيالي وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ومحمل حياتي المهنية معلماً وكاتباً

من جهة أخرى لم يُعطني هذا النزاع منه يوماً واحداً، ولم أحظ بلحظة راحة واحدة من ضغط واحدة من هاتين اللغتين على الأخرى»¹.

إدوارد سعيد ولد في القدس وعاش طفولته في مصر فالأمر متماثل مع معلوف الذي يرى التناقض والتعقيد في هويته وذاته ومنه نخلص إلى أن الأشخاص الذين يكون إنتماءهم لبلدان وثقافات ولغات متعددة لا يعيشون حياة طبيعية، ولا يمتلكون نفسية وهوية طبيعية وصحية. بحكم هذا التعدد والاختلاف والتناقض داخل هوياتهم وانتماءهم فنلاحظ أن معظمهم يعانون اضطراباً هوياتياً داخلياً، يشعر به أصحاب الهوية المزدوجة فقط إضافة إلى المثقفين أمثال أمين معلوف وإدوارد سعيد وغيرهم من مزدوجي الهوية الذين يعبرون عن ذلك من خلال كتاباتهم ولعل أمين معلوف دعى ذلك من خلال كتابه الهويات القتالة والتي من خلاله حاول الإشارة إلى قضية القبول بالهوية المركبة قصد تجنب العنف المترتب عنها والمآسي فيقول إدوارد سعيد: «لقد اخترت دائماً الشعور بالغرابة المزدوجة. فلا أنا تمكنت كلياً من السيطرة على حياتي العربية في اللغة الإنجليزية، ولا أنا حققت كلياً في العربية ما قد توصلت إلى تحقيقه في الإنجليزية. هكذا طغى في كتاباتي كم من الإنزياحات والتغايرات والضياح والتشوه»² فسعيد هنا يشعر بعدم الرضى عن نفسه من خلال هذا الدور الذي أسند له من طرف هذا الانتماء اللغوي سواء تعلق بلغته الأم العربية أو الإنجليزية.

والعجيب في حياة معلوف هو طريقة اكتسابه للغة الفرنسية والتي كانت سبباً أساسياً فيما وصل إليه من شهرة عبر كتاباته وأعماله التي كتبت بهذه اللغة. ولعل من الأسباب التي جعلت أمين معلوف فرانكفونيا هو ذلك الصراع الديني الذي كان يحمله انتماءه لوالديه. (الكاثوليك والبروتستانت) في قوله: «وأكتفي في هذا المقام بالقول إن مذهبين دينيين متعارضين كانا سائدين في عائلتي، وأنا كنت شاهداً، طيلة سنوات طفولتي، على هذه التجاذبات بينهما، شاهداً بل وموضع رهان أيضاً: فإذا كنت قد حصلت تعليمي في المدرسة الفرنسية التابعة للآباء اليسوعيين، فذلك لأن والدتي المتشبهة بكاثوليكتها كانت تريد إبعادي عن التأثير البروتستانتي السائد آنذاك

¹ إدوارد سعيد : خارج المكان : ص 26.

² المرجع نفسه: ص 08.

في أوساط عائلة والدي التي كان ابناؤهما ينتسبون تقليدياً إلى المدارس الأمريكية أو الإنكليزية. وبسبب هذا التجاذب، أصبحت فرانكفونيا، وبالتالي، قصدت باريس أثناء الحرب الأهلية، واستقرت فيها بدلا من نيويورك، أو فانكوفر أو لندن، وبدأت أكتب بالفرنسية»¹.

فسبب خوف والدته من أن يتأثر بالبروتستانتية المسيطرة آنذاك وحتى لا يتوجه تقليدياً كما كانت معظم العائلات البروتستانتية في توجيه أبناءهم إلى المدارس الإنكليزية والأمريكية، قررت تسجيله في مدرسة فرنسية وكان لهذا الصراع إنعكاس كبير في حياته فيما بعد بما في ذلك توجهه إلى الكتابة باللغة الفرنسية عكس إدوارد سعيد الذي كان توجهه إنجليزيا.

يذكر أمين معلوف أنّ اللّغة، خلافاً للدين، لا ينطبق عليها مبدأ التفرد و الحصر أيّ أنّ أيّ إنسان يستطيع أن يمارس، في الوقت نفسه، اللّغة العربية و الإيطالية و العبرية و غيرها و لكنه لا يمكنه أبداً أن يكون يهودياً و مسلماً و مسيحياً في آنٍ واحد. و يلفت انتباهنا، بعد ذلك، إلى المزيّة المزدوجة التي تتمتع بها اللّغة و هي كونها عنصراً من عناصر الهوية و وسيلة للاتّصال. ثمّ يستند الكاتب على هذه الخصويّة المزدوجة فيضيف بأنه لا يدعو إلى فصل اللّغة عن الهوية، كما صنع مع عنصر الدين، لأنه أمر غير مفيد و لا يمكن تحيّل أو التّفكير فيه ابتداءً كما يقول.

ويواصل أمين معلوف كلامه قائلاً إنّ الانتماء اللّغويّ عنصر هامّ في بناء الهوية قد يُوازي الانتماء الدّيني أو يُضاهيه في الأهميّة والشّأن. وقد تأكّد شعور كلّ الثقافات بحاجتها القويّة، والمليحة أيضاً، إلى لغة الهوية وإشباع انتمائها اللّغويّ. وإذا كانت ممارسة لغة الهوية حقّاً مشروعاً لا يقبل المساومة والتّفاوض فإنّ أيّ سلوك يستهدف قطع الحبل السريّ الذي يربط الإنسان بلغته أو محاولة منعه، بشكل من الأشكال، من ممارسة لغته الأصليّة قد يؤدّي إلى ألوان من التّطرف ويفتح أبواباً من العنف والنزاعات يصعب سدّها.

وتفادياً لقيام نزاعات لغويّة، في المستقبل، يقترح أمين معلوف صيغة يراها ملائمة يتحقّق بموجبها صيانة اللّغة الأمّ و إشباع الانتماء اللّغويّ و ضمان التّواصل و التّقارب بين شعوب ذوات لغات مختلفات. و هذه الصّيغة التي يقترحها المؤلّف هي كالتّالي: إنّ كلّ إنسان، في عالم اليوم، يحتاج إلى إتقان ثلاث لغات: اللّغة الأولى و هي لغة هويّته و اللّغة الثالثة و هي اللّغة الإنكليزية لأنها لغة تَبَسُّط جناحها على كلّ الأرض. و بين هاتين اللّغتين هناك اللّغة الوسطى و لتكن أيّ لغة أخرى يختارها الإنسان و تناسبه. و يزيد هذا المعنى وضوحاً حين يدعو إلى المحافظة على

¹ أمين معلوف: الهويات القتالة، ص31.

لغة الهوية و عدم إهمالها ثمّ تعميم تعليم و استعمال اللّغة الإنجليزيّة مع التّأكيد على عدم كفايتها وحدها. و بين هاتين اللّغتين الخاصّة و العامّة ينبغي تشجيع تعلّم اللّغات الأخرى حتّى ينشأ، في كلّ أمة و في كلّ بلد، طوائف من النّاس تُتقن لغات علميّة كالإسبانية و الفرنسيّة و الألمانيّة و العربيّة و اليابانيّة و الصّينيّة...

والحصيلة النهائيّة لهذه الصّيغة، في رأي أمين معلوف، هي تنمية كلّ العلاقات بين الشّعوب بما فيها العلاقات الثقافيّة والتّجارية وضمن نجاحها لأنّ الشّركاء في هذه العلاقات يكونون قد أبدوا اهتمامًا سابقًا ببعضهم البعض حين تعلّم كلّ منهم لغة الآخر. ويخلص الكاتب إلى القول بأنّ هذه الصّيغة ذات أهميّة ونفع للأحاد والجماعات وأنّ الذي تحقّقه متعدّد وثري: إشباع الانتماء اللّغويّ والمحافظة على لغة الهوية ودخول العمولة والتعامل مع مظاهرها بلا خوف أو وجل ثمّ المحافظة على التّنوع اللّغويّ لضمان التّواصل وتنمية العلاقات بين الشّعوب وإثرائها. وكلّ أولئك هو أفضل بكثير من أجواء الشكّ والبلبلّة والتّوجس والظنون.¹

المطلب الثاني: المرجعية الدينية (أزمة الهوية الدينية)

أ- الهوية والدين:

يشغل الدين حيزا مهما ويشكل إحدى الركائز المثينة، التي يصعب أو يستحيل زحزحتها، ويتطرف سكان هذه المنطقة في الاستمسك به والدفاع وهو إذا كان "منظومة من الاعتقادات والسلوكات والمشاعر، تتشكل من خلالها علاقات وجدانية وعملية مع مصدر الاعتقاد وأصل الإيمان"².

"الدين... هو بمثابة المحرك القوي للتماسك الاجتماعي والعنصر الحي في فعل تماهيه، لا وجود لخطاب في المجتمعات المغاربية، يمكنه الاستغناء عن الإجابة أو الإحالة المثنية على الإسلام ونصوصه المقدسة قرآنية وحديثية"³ ولكن ذلك لم يدم طويلا فمنذ ان كان وسيلة للدفاع عن النفس أضحي في وقتنا الحالي يرمز به للتطرف والإرهاب فصار يستخدم لزرع الفتنة وزعزعة الأمن والاستقرار ودس سموم الكفر

فمنذ الماضي البعيد والإنسان يسير حياته ويوميّاته وفق معتقدات يؤمن بها، ووفق طقوس يستعملها اعتقادا منه أنّها تساعد في تسيير شؤون الحياة، هذه الأفعال تدخل ضمن نظام متكامل يسمى "الدين"، وطبعا تختلف

¹ نصر الدين دلوي: قراءة وتحليل في كتاب (الهويات القاتلة) لأمين معلوف، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر، الجزائر، العدد51، ص121.

² محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل: صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي. المركز الثقافي العربي. ط1. 2000. ص: 45.

³ مالك شبل، الجنس والحريم روح السراري، ص18

النظرة لهذا النظام الإيديولوجي باختلاف المستقبليون له، فعلماء الاجتماع والانتروبولوجيين مثلاً ينظرون إليه على أنه نسق تكون في اللاوعي الجمعي للأفراد والمجتمعات وليس بالضرورة أن تكون تلك المعتقدات حقيقية، فالإنسان عندما عجز عن فهم وشرح الظواهر الطبيعية الخارقة بدأ ينظم حكايات وأساطير لتفسير تلك الظواهر ولعل الميثولوجية اليونانية شاهدة على ذلك، في مقابل هؤلاء الملاحدة هناك الفئة المؤمنة والتي لديها قناعة غير قابلة للشك على صحة معتقدات الدين الذي تؤمن به، وهذا الاختلاف في وجهات النظر لا يؤثر في طبيعة وقيمة العلاقة بين الهوية والمعتقدات والأديان التي يؤمن بها الإنسان، على العموم تعددت التعريفات الخاصة بالنظام الديني وهذا التعدد راجع لكثرة الدارسين له وأيضاً لاختلاف طرق نظرهم إليه، حيث يعرفه مؤرخ الأديان الألماني "ماكس مولر" بأنه "كدح من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، إنه توفيق إلى اللاهائي"¹، فالدين هنا هو ذلك الاجتهاد البشري من أجل الوصول إلى ما فوق الطبيعة، أي العمل في الدنيا من أجل العالم الآخر الغيبي اللاهائي، ويقول عنه "ف. شلرماخر" وهو دارس أديان "الدين هو شعور باللاهائي واختبار له، وما نعنيه باللاهائي هنا هو وحدة وتكامل العالم المدرك، وهذه الوحدة لا تواجه الحواس كموضوع، وإنما تنبني عن نفسها للمشاعر الداخلية، وعندما تنتقل هذه المشاعر إلى حيز التأملات فإنها تخلف في الذهن فكرة الله، وإن الخيال الفردي هو الذي يسير بفكرة الله أما نحو المفارقة والتوحيد، أو نوع غير مشخص للألوهة يتسم بوحدة الوجود"²، يربط شلوماخر التدين هنا بالخيال الفردي للإنسان فهذا الإنسان يحقق وحدته مع الإله من خلال إعطاء المجال للتأمل والتوحد في هذا الخالق، دون تدخل للحواس أو المادة في تأملاته.

إذن فالدين من خلال هذه المنطلقات يتدخل في تحديد هوية الأمم، ويحقق عدة وظائف تخدم السير العقلائي لحياة الإنسان، ويحقق ذلك التواصل بين ماضي الإنسان وحاضره، ورغم هذه الوظائف التي يحققها الدين للهوية إلا أن هناك في بعض الأحيان صراع إيديولوجي ينتج بين الدين والهوية بسبب رفض بعض المجتمعات مساعي الدين الهادفة إلى تشكيل الهويات الوطنية، ويحدث هذا خاصة في المجتمعات العلمانية، مثل ما حدث في تركيا في عهد أتاتورك الذي حارب الهوية العربية الإسلامية للشعب التركي، محاولاً تغييرها بالهوية التركية الأصلية، وهو هنا تبنى توجهات الدولة الحديثة ونمط العقلنة السياسية العلمانية، لكن في مقابل هذا الصراع الهوياتي الذي حدث في تركيا، نجد الدول العربية تحافظ على تلك الهوية، فالإسلام هو الذي كون شخصية العربي وهو الذي جعل من الأمة الإسلامية رائدة في جل المجالات لفترات طويلة، رغم التحديات والعوائق الخارجية التي حاولت

¹ فراس الحواس: دين الإنسان، منشورات علاء الدين، دمشق، ط.4، 2002، ص23

² المرجع نفسه، ص24.

دائماً إبعاده عن هذا الدين المقدس، بل حتى التحديات الداخلية والمتمثلة في تيار الحداثة الذي جاء به بعض المفكرين العرب محاولين إرساء معالم التنوير الغربي وتقويض جذور التراث الديني القائم على عقيدة التوحيد. نذكر على سبيل المثال في المجال الأدبي، طه حسين وأدونيس، لكنهم وجدوا أنفسهم في صراع مع رواد التيار المحافظ بقيادة الطهطاوي والعقاد ومحمد شاكر.

عاش الكاتب اللبناني أمين معلوف فترة زمنية في فرنسا يمكن أن تكون أطول من المدة التي عاشها في بلده الأم لبنان فحسب قوله غادر في سن السابعة والعشرين وفي هذا الوقت اكتسب الكثير من المقومات الثقافية واللغوية في بلده الثاني وتلاحم معه حتى صار قطعة منه وعلى حد قوله أنه يشرب (ماءه وتلامس يده أحجاره يومياً) وقبل الوصول إلى هذا البلد حمل الكثير من العناصر الانتمائية التي تجعله مشرقياً الهوية كالثقافة واللغة وغيرها من عادات وتقاليد وانتماءه المسيحي العربي. فالخصائص التي كان يملكها في لبنان والخصائص التي اكتسبها من فرنسا شكلت معاً هويته المركبة وانتماءه المزدوج.

يملك أمين معلوف أصولاً متجذرة إذ أنه عربي ومسيحي فهو يقطن في الجنوب العربي وينتمي لعائلة مسيحية عن طريق أحد أجداده القدامى الذين اتخذوا المسيحية ديانة قبل ظهور الإسلام بكثير وذلك في قوله: «أنا أنتمي إلى عائلة تتحدر من جنوب الجزيرة العربية، استقرت في جبل لبنان منذ قرون عديدة، وانتشرت لاحقاً، عبر الهجرات المتعاقبة، في مختلف بقاع الأرض، من مصر إلى البرازيل، ومن كوبا إلى أستراليا وهي تفخر بأنها كانت على الدوام مسيحية و عربية في آن منذ القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد على الأرجح، أي قبل ظهور الإسلام بوقت طويل، وحتى قبل اعتناق العرب للديانة المسيحية.¹» فهذا الانتماء المسيحي العربي الذي يميز هوية الكاتب يربطه مع جميع المسيحيين العرب أينما حلوا في العالم. فخاصية كونه عربي ومسيحي في نفس الوقت تجعله ينتمي إلى فئة أقلية جداً في قوله: «وهكذا أشعر في قرارة نفسي، إذ اتناول هذين العنصرين من هويتي كل منها على حدة، أنني قريب، إما باللغة وإما بالدين، من نصف البشرية، كما أجد نفسي في مواجهة خصوصيتي، إذ أنظر إلى هذين المعيارين معاً.²» فهو يرى بأن هذه الخصوصية كونه عربي ومسيحي معاً قد تكون سبباً لجمعه مع أشخاص آخرين في هذا العالم الفسيح. أي قربه من قسم كبير من الإنسانية عبر تلك الروابط الانتمائية اللامتناهية.

¹ أمين معلوف: الهويات القتالة، ص 27.

² المرجع نفسه: ص 29.

ولقد حاول أمين معلوف الإشارة إلى نقطة مهمة خاصة بالانتماء إذ أن لكل شخص انتماءات عديدة تربطه بأشخاص كثر باختلاف علاقته بهم القريبة والبعيدة منها، ادن هناك نقطة تلاقي وتقاطع بين هؤلاء البشر جميعا فكلما تعددت الانتماءات تحددت الخصوصية الهوياتية أكثر فأكثر إضافة إلى تطرقه إلى أصله وانتماءه الديني وذلك في قوله: «ولو أسهبت الحديث عن أصولي، لوجب علي التوضيح أنني أبصرت النور في كتف الطائفة الكاثوليكية أو الملكية التي تعترف بسلطة البابا مع احترام بعض الطقوس البيزنطية، ويبدو هذا الانتماء عن بعد مجرد تفصيل بل ماثرا للفضول؛ أما لو نظرنا إليه عن كثب، فهو يمثل جانبا من هويتي.¹» فهو هنا أراد أن يوضح تلك الخصوصية التي تمتلكها هويته المركبة والملاحظ أن هناك تعقيد جلي وواضح في هوية أمين معلوف كما أنه يتشاطر ويتشارك هذه الانتماءات مع العديد من الأشخاص في هذا العالم وذلك في قوله: «لا، إنني أكتفي بهذا القدر وأطرح السؤال الآتي: كم من بني جنسي يشاركوني هذه العناصر المتباينة التي قولبت هويتي ورسمت مساري في خطوطه العريضة؟ قلة قليلة بل ربما لا أحد، وهذا ما أريد التأكيد عليه؛ فأنا أملك، بفضل كل من انتماءاتي، كل منها على حدة، صلة قريى بعدد هائل من بني جنسي، واتمتع، بفضل المعايير كلها مجتمعة، بهويتي الخاصة التي لا تتطابق مع أية هوية أخرى.»²

فلو قارنا أمين معلوف بادوارد سعيد فهو عربي ومسيحي مثله وهذا الانتماء يجعله متماثلا مع المسيحيين العرب في جميع أنحاء العالم إلا أنه رغم هذا الترابط ورغم هذه الانتماءات التي كونت هويته هناك قلة قليلة تماثل معه لكن لا يملكون نفس هويته انما هناك تباين بين البشر جميعا في هذا العالم حتى ولو أن هناك شبه في تلك العناصر المشكلة لهوياته. ف"سعيد" مثلا ينتمي هو كذلك إلى عائلة مسيحية، وهو عربي ولد في فلسطين وهاجر مع والديه إلى مصر في طفولته، وبالرغم من انتمائه المسيحي، إلا أنه كان محترماً لجميع الديانات، و كانت له حوارات عدة فيما يخص الإسلام، و كان مضطرباً بكل تلك العناصر الانتمائية التي شكلت هويته المركبة، حيث يقول: «كان والدي يحمل الجنسية الأمريكية، ولذلك كنت بالوراثة أمريكياً وفلسطينياً في (آن واحد؛ وكنت أقيم في مصر لكنني لم أكن مصرياً، أنا أيضا مركب وغريب»³مركب وغريب مثل والده الذي يحمل الجنسية الأمريكية وهو فلسطيني كذلك، وبالرغم من أنه كان يتنقل بين ثلاث دول عربية منها: مصر ولبنان وفلسطين، إلا أنه صرح بانتمائه الفلسطيني الأمريكي، ونفى أن يكون له انتماء مصري، حتى و إن

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص30.

² المرجع نفسه: ص32.

³ إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، تر: نائلة قلقل حجازي، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008، ص258.

كان قد عاش فيها جزءاً من طفولته في هذا البلد، و"إدوارد سعيد" أيضاً ينتمى إلى أقلية مسيحية فقد كان والداه من البروتستانت في فلسطين «ويعني ذلك أنهما كانا منعزلين عن الأغلبية الساحقة من المسيحيين الذين يشكلون بالطبع، أقلية في مجتمع مسلم بشكل أساسي.»¹

فمعلوف يريد لنا أن نرى بأن الهوية عنده تعني عدم التماثل والتشابه فيقول: ودون التمادي في التعميم، أرى أنني أقتاسم مع كل كائن بشري بعض الانتماءات المشتركة، ولكن لا إنسان في العالم يشاطرنى كافة انتماءاتي ولا حتى معظمها، فمن أصل عشرات المعايير التي يسعني استعراضها، تكفيني حفنة منها لتتوضح معالم هويتي الخاصة والمختلفة عن هوية شخص آخر، ولو كان إبني أو والدي.»²

فحتى ولو كانت هوية العديد من الأشخاص هذا لا يعني بأن هناك تماثل في الهوية شخصان أو أكثر ورغم تشابهها وتشاركها في عدة عناصر لا بد أن كل هوية لديها ميزة مختلفة عن الأخرى وذلك جلي في قوله: «ومن جهة، كنت حريصاً على الإشارة، استناداً إلى أكثر النماذج المألوفة لدي، إلى الطريقة التي تسمح لنا، ومع بعض المعايير الانتمائية، بالتأكيد على صلاتنا مع بني جنسنا وخصوصيتنا في آن. ومن جهة أخرى، لم أكن أجهل أننا كلما أوغلنا في تحليل حالة خاصة، جازفنا بسماع البعض ينبرون للقول إن الأمر يتعلق فعلاً بحالة خاصة.»³

وقد نجد الإجابة في قول معلوف: «هل أنا نصف فرنسي، وبالتالي نصف لبناني؟ لا أبداً فالهوية لا تتجزأ، ولا تتوزع مناصفة أو مثالة، ولا تصنف في خانات محددة ومنفصلة عن بعضها البعض. وأنا لا أملك هويات متعددة بل هوية واحدة مؤلفة من العناصر التي صنعتها وفقاً «لجرعة» خاصة لا تتطابق مطلقاً بين شخص وآخر.»⁴ فهو هنا يكذب رأي كل الذين أنه متعدد الهويات ويؤكد بأن له هوية واحدة إنما تتشكل من عناصر متعددة. فالهوية لا تتعدد وإنما تلك العناصر المشكلة لها ويظهر ذلك في قوله: «ويحدث، في بعض الأحيان، حين أنتهي من الشرح المستفيض والمطول للأسباب المحددة التي تدعوني إلى الدفاع عن كل انتماءاتي دفاعاً كاملاً، أن يقترب مني أحدهم ويهمس لي، مرتباً على كتفي: «أنت محق في قولك هذا، ولكن كيف تشعر في قرارة نفسك؟»⁵ وحاول معلوف أن يجيب على تلك التساؤلات التي كانت تراوده معتقداً وظناً منه أنه تخلص منها لكنه اصطدم بسؤال أكثر

¹ إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة: ص 258.

² أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 32.

³ المرجع نفسه: ص 33.

⁴ المرجع نفسه: ص 08.

⁵ المرجع نفسه: ص 8_9.

تعقيدا ذلك الانتماء الذي يشعر به في قرارة نفسه وما هي الهوية التي يمكن أن يحملها داخله فيقول: «لطالما جعلني هذا التساؤل الملح على الابتسام. أما اليوم، ف لم أعد أبتسم إذ أنه يكشف لي عن رؤية بشرية واسعة الانتشار لا تخلو من الخطورة في اعتقادي. فحين يسألني البعض عما أكون «في قرارة نفسي»، يفترض أن هذا السؤال أنه يوجد في «قرارة» كل إنسان، انتماء واحد ذو أهمية، هو «حقيقته الدفينة» نوعا ما، و«جوهره» الذي يتحدد نهائيا عند الولادة ولا يتغير قط.»¹

ب- الانتماء الديني هل هو الأكثر اختياراً ولماذا؟

لقد تطرق معلوف في كتابه "الهويات القاتلة" إلى العديد من الانتماءات الوطني منها والعربي واللغوي ولقد ركز كثيرا على الانتماء الديني. فحسبه يعد أكثر الانتماءات اختياراً وهذا ما يقودنا إلى طرح التساؤل التالي: لماذا تكون الهوية الدينية الأكثر اختياراً من بين الهويات الأخرى؟

والملاحظ أن العامل الديني كان أحد أهم المرتكزات التي أدت إلى بناء الحضارات قديما فلو عدنا إلى الماضي لوجدنا أن في الغرب للكنيسة فضل كبير في بناء الحضارة الأوربية والغربية بصفة عامة أما بالنسبة للمشرق فالدين الإسلامي بتعاليمه الصحيحة ودعوته إلى الحق والتعايش والتسامح والحوار قام ببناء أحد أعظم الحضارات التي لا ينكرها التاريخ بل وسجلها بحروف من ذهب، ولكنها الآن تعاني من خمول أدى إلى تحاذلها وجعلها غير متقدمة ومزدهرة كما عهدناها.

ولقد تطرق أمين معلوف في الفصل الثالث من كتابه الهويات القاتلة والمعنون بزمن القبائل الكوكبية وذلك في قوله: «ليس المناخ السائد» بالطبع مفهوما دقيقا. وإذا كنت قد لجأت إليه، فلأنني أريد الإشارة إلى هذه الحقيقة الغامضة وغير واضحة المعالم التي تحمل الكثيرين، في فترات معينة من التاريخ، على التمسك بعنصر من هويتهم على حساب العناصر الأخرى، وعلى هذا النحو، أصبح التأكيد على الانتماء الديني، واعتباره العنصر الأساسي في الهوية موقفا رائجا، ولا شك أنه كان أقل شيوعاً منذ ثلاث مائة عام، ولكنه، وبصورة لا جدال فيها، أكثر انتشارا مما كان عليه منذ خمسين عاما.»²

ولقد استعمل الكاتب لمصطلح القبائل الكوكبية تارة وفي تارة أخرى كونه وهو يقصد تلك الجماعات الدينية التي لها هوية دينية كالقبائل وما يشير الانتباه أن الاهتمام الديني في حالة تزايد فالأقليات المسلمة منها

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 9.

² المرجع نفسه: ص 123.

والمسيحية كان اهتمامها بالانتماء الديني و بالهوية الدينية بشكل أقل فما هي أسباب تزايد هذا الانتماء يا ترى؟ وهل للوحشية والحروب ومضاعفاتها من عنف واضطهاد أثر وسبب في ذلك؟ فيقول أمين معلوف: «كان بوسعي التطرق إلى البيئة الفكرية أو المناخ العاطفي، وهي مفاهيم لا تقل غموضاً أو بالكاد عن مفهوم المناخ السائد. غير أن الأسئلة الحقيقية تتجاوز المفردات وتبقى هي الأهم: ما الذي يجعل النساء والرجال من كل الأعراف في العالم أجمع يكتشفون من جديد انتماءهم الديني اليوم، ويشعرون بنزعة لتأكيد بشق الأساليب، بينما كانوا يفضلون، منذ بضع سنوات، التشديد على انتماءاتهم الأخرى؟» هذا هو السؤال الذي حاول "معلوف" التركيز عليه باحثاً من خلاله، وعبر عديد الأمثلة الأخرى التي استشهد بها في كتابه هذا عن السبب الحقيقي الذي يجعل من هذا الانتماء يعود في الآونة الأخيرة بهذا الشكل، لذلك يعيد "معلوف" ذكر هذا المثال بقوله: «ما الذي يجعل عاملاً يهودياً في روسيا اعتبر نفسه، طوال حياته، بوليتارياً في المقام الأول، يرى نفسه يهودياً أولاً وأخيراً؟ ما الذي يجعل الإعتزاز بالانتماء الديني الذي كان يعتبر غير لائق فيما مضى، يبدو في أيامنا الراهنة طبيعياً ومشروعاً، وينتشر في العديد من الدول في آن؟»¹ فما الذي يجعل مسلم يوغسلافي يسبق انتماءه الديني على انتماءاته الأخرى. هل السبب في كونه من عائلة مسلمة أم أنه يلجأ إلى الانتماء الديني عند شعوره بالضياع والتشتت.

والجدير بالذكر أن العنف والإضطهاد ليس وليد العصر الحالي وإنما كان منذ القدم. فالأقليات المسيحية تعرضت للإضطهاد في فترة ما وكذلك الأقليات المسلمة تعرضت للإضطهاد في زمن ما ولا زال لحد الساعة فلا بد من الإشارة إلى أقلية الروهينغا في بورما التي تعاني الاضطهاد بصورة واضحة وصريحة والأقلية المسلمة كشمير في الهند ما زالوا في تعسف واضطهاد مستمر. كما لا يمكن التغاضي عن محرقة هتلر وما تعرضت له الأقلية اليهودية في زمنه إذ أن الكثير قتلوا على يده أيام سيطرة النازية، فكيف لهذه الأقليات أن تحمي نفسها في ظل هذا الإضطهاد وما هو سبب العدوان اتجاه الدين ففي نظره «إن هذه الظاهرة معقدة ولا تفسير يمكنه أن يحيط بها بصورة مرضية. ولكن من البديهي أن أفول ثم انهيار العالم الشيوعي قد كان لهما دور حاسم في هذا التحول. فالماركسية تعد منذ أكثر من قرن بإقامة مجتمع من نوع جديد على الأرض تنتفي فيه فكرة الله. وقد أسفر فشل هذا المشروع، سواء على الصعيدين الإقتصادي والسياسي أو على الصعيدين الأخلاقي والفكري، عن رد الإعتبار إلى المعتقدات التي كانت الماركسية تريد رميها في مهملات التاريخ.»²

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 124.

² المرجع نفسه: ص 125.

ولقد أدى تراجع الشيوعية إلى زيادة العداوة ضد الدين. كون أن السوفياتية لم تكن معادية للدين بشكل مباشر وهذا ما أعطى نوع من حرية المعتقد وعدم الشعور بالاضطهاد على عكس الماركسية التي جاءت بأفكارها الممنهجة ضد الدين هذا ما دفع الأقليات للتشبث بالدين خاصتهم. وهذا يقودنا إلى أن معلوف يرى أن الانتماء المهدد والمضطهد هو الانتماء الأكثر بروزاً، فكلما كان الانتماء مهدداً زاد تشبث أفراد به. لذلك يقول: «لقد استطاع الدين، بصفته ملاذاً روحياً وانتمائياً، من بولندا إلى أفغانستان، أن يشكل نقطة التقاء بديهية لكل الذين كانوا يناهضون الشيوعية. ولذا، فقد كانت هزيمة ماركس ولينين بمثابة انتقام للأديان بقدر ما كانت على الأقل نصراً للرأسمالية والليبرالية أو للغرب¹».

ولقد سلط أمين معلوف الضوء على موضوع العولمة وكونها سبباً في تنمية الجانب الديني، كما سلط الضوء على قضية هجرة الشباب إلى دول غربية كونهم يرون أن الأفكار التي يحملها الغرب وثقافته مثلاً يحتذى به لكن من جهة أخرى يقول: «ولكن كل الذين لم يولدوا وهم يملكون سيارة ليموزين مركونة أمام منازلهم، كل الذين يرغبون بتغيير النظام القائم، كلا الذين يثورون على الفساد وتعسف النظام الحاكم والفروقات الاجتماعية والبطالة وانسداد الأفق، كل الذين لا ينجحون في إيجاد موقع لهم في عالم سريع التحول، ينجذبون للحركة الإسلامية، فيشبعون في إطارها على حد سواء حاجتهم للهوية وحاجتهم للاندماج في مجموعة، وحاجتهم الروحية وأحياناً حاجتهم فقط لاستقرار الحقائق الشديدة التعقيد، وحاجتهم للتحرك والتمرد²».

فيا ترى ما الدافع الذي يجعل هذه الفئة تختار هذا الدرب الغير صحيح؟ والذي يقود بدوره الأبرياء نحو الموت جراء مثل هذه الأخطاء، هل هو النقص والحرمان والمشاكل الاجتماعية السبب في حمل هذه الفئات للسلاح ليصيروا مجرمين أم أنهم مجرد ضحايا تفكيرهم وتشدهم لأن أفكارهم في البداية كانت سليمة بعدها ثاروا في وجه الظلم والاستبداد المسلط عليهم من قبل النظام أو الدولة، لذلك اختاروا الاتجاه الإسلامي لأنه حسب معلوف الوحيد الذي يصون هويتهم ويحميها.

ولقد أشار معلوف أنه لا يتأثر بالخطاب الإسلامي ليس لأنه مسيحي الانتماء، بل لأنه يرفض فكرة توجيهه من طرف طائفة أو أن تفرض عليه منطقها وعلى أي شخص آخر مهما كان توجهه فيقول: «لا يسعني إلا أن أشعر بانزعاج شديد حين أستعرض هذه الظروف التي دفعت بشباب العالم الإسلامي إلى الانخراط في

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 125.

² المرجع نفسه: ص 127.

صفوف الحركات الدينية. ويعزى انزعاجي إلى أنني لا أستطيع، في خضم النزاع الدائر بين الإسلاميين والزعماء الذين يحاربونهم، التماهي لامع هذا الفريق ولا ذاك. فأنا لا أثار بخطاب الإسلاميين الراديكاليين، ليس فقط لأنني لا أشعر بنفسني معنيا به كوني مسيحياً، بل كذلك أنني لا أتقبل أن تقوم جماعة دينية، مهما كان تفوقها العددي، بفرض قانونها على كل فئات الشعب.¹

فهنا دعوة صريحة منه إلى احترام المعتقد والمساواة بين جميع الأشخاص والمحافظة على الحريات والحقوق لأنه يعتبرها قيماً أساسية ويجب احترامها، ويرى أن السبيل الوحيد لتجنب الاضطهاد الديني وجميع أنواع الاضطهاد هو فرض النظام الديمقراطي. فكل التحولات التي تحدث في العالم، لا تحدث دون أن يكون هناك تصادمات وصراعات بين عدة قوى، فقبولنا لكل هذه التحولات يكون إما لاستفادتنا منها وحاجتنا إليها وإما تحتم قبولها إذ نحن مجبرون على أخذ بعض الأشياء من دول غربية مثل اقتناء الأسلحة المتطورة للوقوف في وجه العالم الذي يشهد مؤحراً بؤر صراع خاصة في إفريقيا والشرق الأوسط إضافة لشراء الأدوية والأغذية.

فأمين معلوف في هذه الأمثلة يركز على الأشياء المشتركة التي تجمع العديد من الدول وتحدث عن الثورة التي يخوضها عند شعوره بالخطر عنصراً مهماً في هويته كاللغة أو الدين أو مختلف رموز ثقافته واستقلاله.

ففي القديم لم يعرف العالم كل هذه الأشياء المشتركة بين الناس في جميع المجالات والأفكار، فهذا لم يمنع بعض الفئات من تأكيد اختلافها فلا يمكن قبول كل ما يأتي من الغرب، فهذه الأقليات يجب عليها التأقلم واخذ ما يناسبها وستكون أكثر تشدداً إذ شعرت بأي تهديد أو مساس يمس لغتها أو ثقافتها أو دينها و«يمكن أن نلاحظ بالعين المجردة ما قلته لتوي. فلا شك أن العولمة المتسارعة تولد «استجابة» تتمثل في تعزيز الحاجة لتأكيد الهوية، وكذلك تعزيز الحاجة الروحية بسبب القلق الوجودي الذي يصاحب هذه التحولات المبالغية. والجدير بالذكر أن انتماء الديني وحده يقدم جواباً على هاتين الحاجتين، أو يسعى على الأقل لتقديم هذا الجواب.»²

فالعولمة هي التي تدفعنا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى تعزيز الحاجة إلى الهوية ومن جهة أخرى فهي يمكن أن تتغير في بعض سلوكياتنا وافكارنا وعاداتنا وثقافتنا ومن جهة أخرى تجعلنا نتشبث ونتمسك بانتمائنا وهويتنا، فالكثير من الشعوب تعتقد أنها بالعودة إلى مورثها بكل ما يحمل يعتبر مواجهة للعولمة وتحافظ على المورث من جهة تواجه العولمة من جهة أخرى.

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 127_128.

² المرجع نفسه: ص 132.

والمحافظة على الانتماء الديني هو رد فعل لتعزيز الهوية والوقوف في وجه العالمية وتطوراتها.

ج- هل يمكن تجاوز الانتماء الديني؟

لقد حاول كاتبنا أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة أن يتطرق إلى قضية وتساءل إن صح القول عن امكانية تجاوزنا انتماءنا الديني والذي يراه الكثير من الطوائف أنه الأكثر اختياريًا. فبعض الطوائف الدينية تلجأ إلى حمل السلاح وارتكاب جرائم شنيعة في حال مساس أي شكل أو عنصر من هوياتهم وذلك جلي في قوله: «أيا كانت الصياغة الملائمة، تجدر الإشارة إلى أن الشعور بالانتماء إلى جماعة دينية، كما يتجلى اليوم، ليس فقط العودة إلى وضع سابق. فنحن لسنا على عتبة عصر الجنسيات بل عند نهايته. ولسنا على عتبة الاممية على الأقل في نسختها «البروليتارية» بل أيضا عند أفولها. وبالتالي، لا يمكن الشعور بالانتماء بإيماءة مزدرية واعتباره لحظة تاريخية سرعان ما سيتم تجاوزها»¹.

فحسب معلوف الانتماء إلى جماعة دينية لا يعني انتماءه قوميا لها لأنه حسبه قد ولى زمنه. فهو يتساءل حول امكانية تجاوزنا الانتماء الديني؟ وما هو الانتماء الذي سيحل محله؟ وهل هناك امكانية عودة الانتماء إلى حالته قبل هذه الحالة؟ وهل هناك فرصة لرؤية عالم جديد تتجاوز فيه الأقليات انتماءاتها الدينية؟ ولقد أشار معلوف إلى أن تجاوز الانتماء الديني لا يعني تجاوز الدين بحد ذاته، وإنما تجاوز الأفعال التي تعمل وتقام تحت راية الدين واسمه فيقول: «أرى من الضرورة، عند هذا الحد من التحليل، توضيح بعض الأمور لتفادي الوقوع في سوء تفاهم خطر فعندما أتحدث عن تجاوز الانتماء الديني، لا أعني أنه يجب تجاوز الدين نفسه. فلا العلم ولا أي عقيدة ولا أي نظام سياسي في اعتقادي سوف يرمي بالدين في غياهب التاريخ. وكلما تطور العلم، توجب على الانسان أن يتساءل حول غايته. سوف يتلاشى إله «الكيف؟» يوما ما، ولكن إله «الماذا؟» لن يموت قط. وقد لا تكون الديانات نفسها موجودة بعد ألف عام، ولكنني لا اتخيل العالم دون أي شكل من أشكال الدين»².

ولقد أشار هنا بأنه لا يمكن ولا توجد أية سلطة لسيان الدين رغم التطور العلمي الحاصل، فهو يشير أنه لا يمكن زوال الديانات ولكنها تتغير فالإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مختلف كثيرا عن وقتنا هذا. وعليه أصبحت رؤية معلوف أكثر وضوحا إتجاه تجاوز الانتماء الديني لما فيه من مشاكل وسلبيات تؤثر على الدين بصفة عامة وتقود الأقليات للقتل فنجدد يدعو إلى تجاوز التعصب والبحث عن سبل أخرى تقودنا إلى إشباع

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 133.

² المرجع نفسه: ص 135.

حاجتنا إلى الهوية بطريقة غير هذه الطريقة. لأنها برهنت ولزمن طويل على فشلها وتسببها للعديد من المشاكل في العالم وبالتالي وجب تجاوزها.

ولقد طرح أمين معلوف مسألة التعصب الديني في كتابه الهويات القاتلة أثناء حديثه عن الإسلام والمسيحية وقد أسهب في حديثه عن العمليات الاضطهادية التي تمارس تحت رداء الدين الإسلامي، والتي كانت سببا في تشويه صورته وهذا ما دفع كاتبنا مثله مثل الآخرين الى طرح هذا التساؤل: ألم تستطع هذه المجتمعات الإسلامية أن تتغلب على هذه المظاهر، أم أنها ملازمة لثقافتها وديانتها، فما يحدث في العالم الإسلامي مؤلم جداً؛ لأن كل تلك المظاهر الفظيعة والسلوكات المشينة لا علاقة لها بهذا الدين الذي يدعو إلى نبذ العنصرية والتمييز والعنف والتطرف، ويدعو إلى احترام الحقوق والحريات والتعايش والحوار، فيقول: «أنا بقوله:» لا استطع أن اتبع أولئك الذين يجتزون، بالأمس واليوم، الأفكار المسبقة القديمة المناهضة للإسلام، ويعتقدون أنفسهم مؤهلين، كلما برز حدث مروع، لاستخلاص الأحكام النهائية حول طبيعة بعض الشعوب وديانتها.»¹ فتكون هذه الأحكام متكئة على وقائع تاريخية سابقة فمعلوف يدعو إلى الموضوعية في التقييم اد أنها أحكام عنصرية معادية للإسلام ومنافية لتعاليمه ولقد خلص أمين معلوف إلى نتيجة مفادها أنه ما من ديانة تخلو من التعصب ولا يجوز تبريء أية عقيدة كونهم جميعا متشاركون في ما حصل وكلهم مذنبين.

د- الإسلام والمسيحية والدعوة للتسامح والتعايش:

تحدث أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة عن الإسلام ودوره الكبير في بناء المجتمع كما تحدث عن فضله في بث قيم التعايش والحرية ونبذ العنف فيقول: «ولا أنوي التطرق إلى هذا الفتح كما لو أنه مسيرة سلمية أو وصف العالم الإسلامي كأنه جنة من التسامح. غير أن السلوكيات تكتسب دلالتها في سياقها التاريخي. ولا شك أن الدين الإسلامي قد استوعب تقليديا ديانات توحيدية أخرى في الأراضي التي كان يسيطر عليها. وقد يتساءل الذين يخالفوني الرأي: ما جدوى التغني بالماضي طالما الحاضر على ما هو عليه؟ وأنا أتفهم موقفهم إلى حد ما. فكون الإسلام ديناً متسامحاً في القرن الثامن لا يشكل عزاء حقيقياً إذا كان الرهبان يذبحون اليوم، والمفكرون يعترضون للاغتتيال، والسياح يموتون تحت وابل الرصاص.²» فمعلوف هنا يريد تقديم الإطار الزماني لبداية الإسلام وتطوره عبر التاريخ، كما أنه يرفض القول بأن الإسلام دين تسامح وتعايش لأنه يعلم أن هناك من

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 69-70.

² المرجع نفسه: ص 79.

سينتقده بسبب ما يحدث تحت راية الإسلام. فهو يركز على نقطة مهمة في قضية الإسلام والمسيحية والدعوة إلى التسامح اذ يحاول جاهدا الكشف عن الأسباب التي تجعل من كل تلك الفضائع والسلبيات منسوبة للإسلام في حين يتم تبييض صورة المسيحية على أنه دين حوار وتسامح وذلك في قوله: «وأنا، اذا ستحضر الماضي، لا أسعى قط إلى حجب الفضائع التي تطالعا بها الانباء والبرقيات و الصور كل يوم من العاصمة الجزائرية وكابول وطهران والصعيد المصري وغيرها من المناطق. فغايتي مختلفة تماما، وأفضل توضيحها ليفهم الآخرون مقصدي: إن ما أكافح وسوف أكافح ضده ما حييت، هو تلك الفكرة القائلة بوجود دين من جهة_المسيحية_ كان مهيبا في كل الأوقات لنقل الحداثة والحرية والتسامح والديمقراطية، يقابله دين آخر_الإسلام_محكوم منذ البداية بالطغيان والظلمية. إن هذه الفكرة مغلوبة وخطيرة وهي تسد كل الآفاق أمام قسم كبير من البشرية.¹ وعليه فالإسلام ليس بحاجة لتبرئته كونه ذو جوهر ايجابي ولكن معلوف ركز على تلك الدعايات الإعلامية الخاطئة التي تتحكم وتزود العقول في العالمين العربي والغربي، فتحاول ضرب الإسلام وذلك بإظهاره بصورة سيئة فمعلوف هنا يتحدث بصورة موضوعية ودون تعصب ازاء الديانة المسيحية، فتاريخ الديانتين الفعلي يظهر كل الفضاعات التي حدثت وقد بين أن الديانة المسيحية كانت أكثر تعصبا وعدائية من الإسلام كونها حقيقة تاريخية لا يمكن التغاضي عنها وعلى الرغم من اظهار العكس من طرف وسائل الاعلام والمنظمات العالمية.

والملاحظ أن أمين معلوف رغم انتماءه المسيحي إلا أنه يريد اظهار حقيقة هذه الديانة وليس اظهارها كما يفعل الآخرون على حساب صورة الإسلام. كما أنه لم ينفي انتماءه الديني إلى المسيحية وذلك في قوله: «ولو ولدت قبل مائة عام، لكنت ابتعدت عنها على الأرجح، معتبرا أنها مناهضة، وإلى غير رجعة، لمفهوم التقدم ومفهوم الحرية، وأنها اعتمدت نهائيا التزمت والجمود. ولذا من المهم تقويم سلوك الأفراد والمؤسسات من منظور تاريخي. فأنا، على غرار الكثيرين، ارتاع لما أرى وأسمع اليوم في العالم الإسلامي، وأشعر بالحزن كذلك بسبب موقف الذين يبدون سعادة للغاية لأنهم قرروا بأن ما يحدث من طبيعة الإسلام، وبأن الوضع لن يتغير.²»

فمعلوف يعترف بأن المسيحية لم تظهر في تاريخها الدعوة للحرية والعدالة بل تميزت بالرجعية. فمعلوف في حالة نفسية يملكها الحزن ازاء الفرحة التي تتخلل بعض الأشخاص بسبب الاختلالات التي تحدث في العالم الإسلامي فحسب معلوف «لا توجد ديانة معصومة من التعصب، ولكننا لو قمنا بمحصلة هاتين الديانتين «الغريمتين» لوجدنا أن الإسلام لبس سيئا لهذه الدرجة. ولو كان أسلافي مسلمين في أرض قد اجتاحتها الجيوش

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص80.

² المرجع نفسه: ص81.

المسيحية، بدلا من أن يكونوا مسيحيين في بلاد غزتها الجيوش المسلمة، لا أعتقد أنهم كانوا سيستمرون في العيش طوال أربعة عشر قرنا في مدتهم وقراهم، محافظين على ديانتهم. فماذا كان مصير مسلمي إسبانيا؟ وماذا حل بمسلمي صقلية؟ لقد أبدو عن بكرة أبيهم، وذبحوا وأرغموا على سلوك طريق المنفى أو جرى تنصيرهم بالقوة¹.»

فالإسلام وعلى الرغم مما يقال ضده إلا أن تاريخه يقول العكس فالحضارة الإسلامية التي أقيمت في الأندلس والتي دعت إلى التعايش والتسامح والحوار والبناء الحضاري والثقافي على نظير المسلمين الذين قتلوا في صقلية وأبدو وهذا يجعلنا نطرح التساؤل التالي هل كان سيقوم المسيحيون بما قام به المسلمون لو تبادلوا الأدوار؟ الجواب طبعا لا لأنهم دو تاريخ دموي. ولقد اثبت الإسلام قدرته على التسامح والدليل تركيا الدولة الإسلامية العظمى وعلى الرغم من قتلهم لم يفكر حتى في ترحيلهم أو ابادتهم وهذا دليل على أن الإسلام دين تسامح وتعايش. فمعلوف يصرح بأنه ليس بصدد إصدار الأحكام، وإنما يرى الإسلام ممارسة طويلة للتعايش والتسامح فيقول: «لا أقوم بإصدار الأحكام بل ألاحظ فقط أن تاريخ الاسلام قد شهد ممارسة طويلة للتعايش والتسامح ، مضيفا على الفور أن التسامح لا يرضيني .فأنا لا أرغب بأن يقبل بي الآخرون بل اطلب أن يعتبروني مواطنا كاملا أيا كانت معتقداتي ، سواء كنت مسيحيا أم يهوديا في بلد ذي اغلبية مسلمة ، أو مسلما وسط المسيحيين واليهود بل حتى إذا كنت لا اعتنق أي ديانة ، علما أن الفكرة التي كانت تدعو إلى وضع أهل «الكتاب» أي التوراة ، تدل على موقع دوبي لم يخل فعلا من المذلة²» فهو لا يصدر الأحكام وإنما يبعث لفكرة التعايش بين الأديان واحترام المعتقدات وهذا ما يدعو إليه الإسلام نفسه أي احترام الإنسان والابتعاد عن التعصب والتشدد الديني.

وهذا ما دفع كاتبنا إلى التساؤل عن سبب تعاكس هذه المعادلة حتى يظهر العالم الإسلامي الذي اقام مشروعا للتسامح منطلقا في ذلك من كتاب الله القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام وتعاليمه أن يتراجع ويصير متعصبا ومتخلفا في حين أن العالم المسيحي الذي كان معقلا للجرائم ليصبح داعيا للحرية والتسامح ونبد العنف والعنصرية وذلك في قوله: «وسوف أذهب أبعد من ذلك ، مضحما التفاصيل ربما ولكن دون غلو: فلو قمنا بدراسة التاريخ المقارن للعالم المسيحي والعالم الإسلامي ، لاكتشفنا من جهة ديانة ظلت طويلا تجهل

¹أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص ص81_82.

²المرجع نفسه: ص83.

التسامح ، وتحمل نزعة توتاليتارية أكيدة ، ولكنها تحولت شيئاً فشيئاً إلى ديانة منفتحة ؛ومن جهة أخرى ، ديانة حاملة لدعوة انفتاح ولكنها انخرقت تدريجياً عن دعوتها واعتمدت سلوكيات متشددة وتوتاليتارية.¹»

وعليه فمعلوف لا يحاول تجريم المسيحية وتبريء الإسلام وإنما تبيين أي الديانتين كانت أكثر تسامحاً عبر تاريخها وفق أدلة وحجج وبراهين وشواهد تاريخية حية والتركيز على أن كل ما قيل على الديانة الإسلامية غير صحيح وأنه مغلوط من طرف الإعلام.

هـ - الإسلام والحداثة.

تناول أمين معلوف في كتابه الهويات القاتلة قضية الحداثة وبين موقف الإسلام منها إذ أنه كان رافضاً لكثير من مظاهرها فهو يرى بأن ليس كل ما يأتي من الغرب يمكن قبوله والعمل به وبحث في الأسباب التي وقفت في وجه تحديث العالم العربي الإسلامي فركز على المشروع التغريبي وبحث في الأسباب التي منعت هذا التحديث.

بالرغم من الركود والتأخر الذي شهده العالم ولا زال يشهده العالم فالعالم العربي والإسلامي يرفض التحديث وله موقف سلبي منه فبات يتعامل بحذر شديد مع كل شيء مصدره الغرب. فالحركات الأصولية الإسلامية ترى الحداثة شكلاً من أشكال التغريب الذي تخشى من خلاله التبعية للغرب. فالحداثة «في جوهرها تهدف إلى القضاء على كل الثقافات وكل الهويات تمهيداً لفرض نموذجها الوحيد المتمثل في عالم السوق، وهذا أمر يهم شعوب الأرض قاطبة، والشعوب العربية الإسلامية بصفة أخص.²»

فالمجتمعات الإسلامية لا تنطبق عليها الكثير من أشكال الحداثة بالرغم من إيجابيتها على الاقتصاد والتكنولوجيا والسوق فهي تهدد الثقافة الإسلامية ولغتها وقيمها ومورثاتها مثل اللباس وعلاقة الرجل بالمرأة وحتى بعض المجتمعات الأروبية ترى أن الحداثة تهدد اقتصادها مثلما يحدث في الفترة الأخيرة من سيطرة للاقتصاد شرق وجنوب شرق آسيا كالصين واليابان واندونيسيا.

ويرى الكثير من باحثي الفكر والفلسفة أن الحداثة شكل من أشكال الشورى الموجود في الإسلام، وأن الإسلام يدعو إلى حماية الأفراد وحقوقهم، ونادى للديمقراطية في نظم الحداثيين قبل أربعة عشر قرناً. إذ نجد أصحاب التيار الإسلامي يتصدون إلى كل ما هو حديث ويأتي من الغرب خاصة، حماية للأصالة والهوية

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 85.

² مصطفى الشريف: الإسلام والحداثة هل يكون غداً عالم عربي؟! دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1999، ص 11.

الإسلامية و«البعض يظن أننا لم ندخل عالم الحداثة، مع أننا ننتمي إلى الزمن الحديث منذ الطهطاوي، بل منذ دخول المطبعة إلى جبل لبنان، فإما أن نكون حداثيين خلاقين منتجين، و إما أن نكون مجرد مستهلكين. تلك هي المشكلة. من هنا لا جدوى من إقامة التعارض بين الخصوصية والعالمية (...). المعنى إما أن نكون خصوصية ثقافية مبدعة، أي عالمية، أو لا نكون¹»

وقد كان التيار الأصولي متشدداً حول كل شيء حداثي، فمعلوف يرى أن كل حادثة هي عملية تغريب. وكل تطور يحدث في العالم يأتي عن طريق الغرب وأن الذين ينتمون إلى حضارة الغرب والذين لا ينتمون إليها لا يعيشون الحياة نفسها، فحسبه الذين يولدون في الحضارة المسيطرة يتقدمون ويتكيفون مع التطورات دون أي اهتزاز لهوياتهم على عكس أولئك الذين لم يولدوا في الحضارة المسيطرة فتلك الأشياء المستوردة لا تتوافق مع هوياتهم وذلك في قوله: «ولا يحيا الذين ولدوا في قلب الحضارة المسيطرة والذين ولدوا خارجها هذه الحقيقة بالطريقة ذاتها. يمكن للأولين أن يتحولوا ويتقدموا في الحياة ويتكيفوا دون أن يكفوا عن كونهم أنفسهم. حتى أننا نستطيع القول عن الغربيين كلما تطوروا شعروا بالتناغم أكثرهم مع ثقافتهم، فقط هؤلاء الذين يرفضون الحداثة يجدون أنفسهم منقطعين عن الواقع²»

فحسب معلوف إن الذين يرفضون الحداثة يعيشون منقطعين عن الواقع الحقيقي ولكن لحسن حنفي يرى في الحداثة تهديداً لهويتنا وذلك في قوله: «قضية الهوية بالنسبة إلينا هي إحدى قضايانا الرئيسية في مواجهة التغريب، نتفاوت فيها من منطقة إلى منطقة تبعاً لشدة الاستعمار وتغلغله في النفوس وما تبقى منه في العقول.³»

المطلب الثالث: المرجعية الثقافية (أزمة الهوية الثقافية)

أ- الهوية والثقافة:

اختلف الدارسون في تحديد ماهية الثقافة نظراً لاتساع معانيها، وبحكم التطور المستمر الذي تعرفه عبر تتابع العصور، ولكن الشيء المؤكد أن الثقافة دائماً ما كانت ترتبط بالمجتمع وبالإنسان وهويته، وهذا ما يجعل من علاقتها بالهوية علاقة وطيدة.

¹ علي حرب: حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص25.

² أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص103.

³ حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط3، 2006، ص20.

جاء في لسان العرب: ثَقَّفَ الشَّيْءُ ثَقْفًا وَثِقَافًا ثَقُوفَةً: حَدَّقَهُ، وَرَجُلٌ ثَقَفَ وَثَقَّفَ: حَادِقُ الْعَهْمِ وَلَمْ يَرُدِّ فِيهِ لَفْظٌ مُثَقَّفٌ، أَمَا لَفْظُ "الثَّقَافَةِ" فَقَدْ وَرَدَ كَمَصْدَرٍ بِمَعْنَاهُ الْحَدَقُ: «وَتَثَقَّفَ الرَّجُلُ ثَقَافَةً؛ أَي صَارَ حَادِقًا خَفِيفًا».¹

وتعود جذور كلمة (culture) إلى اللفظ اللاتيني (colere) الذي يعني حرث الأرض وزراعتها وقد ظلت اللفظة مقترنة بهذا المعنى طوال العصرين اليوناني والروماني حيث إستخدمها (شيشرون) مجازاً بالدلالات نفسها فقد أطلق على الفلسفة (Culture M MEntis) أي زراعة العقل و تنميتها، وقد ظلت الكلمة هكذا حتى القرون الوسطى حيث أطلقت في فرنسا على الطقوس الدينية (cultes) (وفي عصر النهضة إقتصر مفهوم (culture) علي مدلوله الفني والأدبي، فتمثل في الدراسات التي تتناول التربية والإبداع² أصل (الثقافة) في المعاجم العربية يعود إلى الفعل الثلاثي (ثقف نفال: الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة دره الشيء، وجاءت الثقافة في اللغة العربية على عدة معان، منها: يقال «ثقت القناة إذا أقيمت عوجها، وتقفه بالثقل أقيمت المعوج منه»³. قال عدي بن الرقاع :

نَظَرَ الْمُثَقَّفُ فِي شُعُوبِ قَنَانِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثَقَافَتَهُ مُنَادَاً

- «والثقاف هي حديدة تسوى بهما الرماح»⁴. ومنه قول عمرو بن كلثوم⁵

إِذَا عَضَّ الثِّقَافَ بِهَا اشْتَمَزَتْ قَفَا الْمُثَقَّفِ وَالْجَبِينَا

-«وَتَأَقَّفَ فَلَانًا: لَاعَبَهُ بِالسَّلَاحِ، وَهِيَ مَحَاوِلَةٌ إِصَابَةِ الْغُرَّةِ فِي الْمَسَافِغَةِ وَنَحْوِهَا. وَثَقَّافَ كَكِتَابِ: الْحِصَامِ وَالْجُلَادِ، وَتَقَّفَ الرَّجُلُ فِي الْحَرْبِ أَذْرَكَتُهُ وَتَقَفَّتْهُ ظَفَرَتْ بِهِ»⁶، جاء في تهذيب اللغة للأزهري: «رَجُلٌ ثَقَّفَ لَقْفَ إِذَا كَانَ

¹ عبد الغني عماد: سوسولوجيا الثقافة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006 م، ص28.

² نصر محمد عارف- "الحضارة، الثقافة، المدنية" - المعهد العالمي للفكر الإسلامي- فيرجينيا- 1994م- ص(19).

³ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، مادة (ثقف)، وانظر: المصباح المنوي، المفرد الفيومي، مادة (ثقف)

⁴ عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع من عاملة. شاعر كبير، من أهل دمشق، بكنى أبا داود، كان معاصرة لجرير، فهاجيه له، مقدمة عند بني أمية، متاحة لهم، خاصة بالوليد بن عبد الملك القبه ابن ترد في كتاب الاشتقاق يشاعر أهل الشام، مات في دمشق عام 814-95م انظر: ديوان عدي بن الرقاع العاملي، جمع وتحقيق: د. حسن محمد نور الدين، ص(11).

⁵ الأصحاح، الجوهرى، وانظر: المحيط المحيط، بطرس البستاني، مادة (ثقف).

⁶ عمرو بن كلثوم بن عمرو بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن حبيب بن غنم بن تغلب بن وكل، أبو الأسود، شاعر جاهلي مشهور من شعراء الطبقة الأولى، ولد نحو (39ق.م) في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة، كان شجاعة عزيز النفس، ساد قومه تغلب وهو فتي، وعمر طويلا، وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. انظر: ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق: د. عميل بديع يعقوب، ص(9-10).

ضابطاً لما يَجْتَوِيهِ قَائِماً بِهِ... ويقال: تَقَفَ الشَّيْءُ، وهو سرعة التعلم.¹

انطلاقاً مما ورد في المعجم نجد أن من معاني الثقافة في اللغة: التمكن من الشيء وسرعة التعلم وعند الحديث عن مصطلح الثقافة نجد أنه في بداياته الأولى كان يقتصر على مجال الفلاحة، فيقال: ثقافة الكروم، ثقافة الحبوب، على منوال: فلاحة الكروم، فلاحة الحبوب...، واستمرت هذه الدلالة إلى غاية عصر الأنوار حين واكب المصطلح عصر التصنيع والآلة وانتشار المدنية، لتصبح دالة على كل ما له علاقة بالمستوى المعرفي للفرد والمجتمع والدولة،² وظل معنى العرس والزراعة والاستصلاح قليل الشيوع حتى نهاية القرن السابع عشر ولم يتم الاعتراف به أكاديمياً كما لم يظهر في غالبية معاجم تلك الفترة. ولم تبدأ كلمة "ثقافة" بفرض نفسها مجازياً إلا في القرن الثامن عشر. ودخلت بمعناها هذا معجم الأكاديمية الفرنسية في العام 1718م وألحق بها المضاف وصار يقال: "ثقافة الفنون" و"ثقافة الأدب" و"ثقافة العلوم" كما لو كان تحديد الشيء المهذب ضرورياً³، هذه الدلالة البسيطة لمصطلح الثقافة لم تقنع أصحاب النظريات الفلسفية والأدبية فحاولوا الاجتهاد في إعطاء تعريف واف لها، فجاء لنا تعريف "ريموند ويليامز" أحد رواد مدرسة برمنغهام للدراسات الثقافية لها بقوله: "هي نظام دلالي يفرضي حتماً بالنظام الاجتماعي المعين إلى حتمية التبادل الاتصالي بين أفرادها، وحتمية إعادة إنتاجه وحتمية معاشته وحتمية استكشافه"⁴ فالثقافة عنده عبارة عن نسق يحمل عدة دلالات، أهم ما يميزه ارتباطه بالنظام الاجتماعي، أي أن المجتمع هو الذي يحدد أدواره وطبيعته، من خلال العلاقات التواصلية التي تجمع وترتبط الأفراد الذين يعيشون فيه، و"ويليامز" من خلال هذا التعريف يقترب بشكل كبير من أطروحات الماركسية التي ترى في المجتمع أنه المشكل الأول لثقافة الفرد وإيديولوجيته، أما "أليكس ميكشيليلي" فعرف الثقافة بأنها شيء "مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريف خاص للتفاعل الاجتماعي"⁵، هذا المفهوم لا يختلف عن المفهوم الذي جاء به ويليامز فكلما المفهومين يركزان على دور المجتمع في نشأة الثقافة ولكن يضيف لنا ميكشيليلي الذات الإنسانية والتي حسبها تلعب دوراً كبيراً في تطوير الممارسات الثقافية، بيد أن التعريف الذي نعتقد أنه الأكثر اكتمالاً والأكثر إحاطة بمهامية الثقافة هو التعريف الذي جاء به الإنتربولوجي الإنجليزي إدوارد تايلور "بقوله " هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف

¹ عبد العزيز التويجري، الثقافة العربية والتقاليد والتقاليد الأخرى منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط2، المغرب، 2015.

² ينظر: محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ثالثة للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2007، ص06.

³ دينيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية - مركز دراسات الوحدة العربية للترجمة - لبنان - 2007م - ص(17،18).

⁴ عز الدين المناصرة: الهويات والتعددية اللغوية، المابل للنشر والتوزيع، عمان، ط.1، 2013، ص07.

⁵ المرجع نفسه، ص07.

وكل المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع"¹، هذا التعريف بقدر ما هو بسيط بقدر ما هو شامل للعديد من الجوانب التي تشترطها الثقافة، بداية بالمعرفة المكتسبة إلى الأديان مروراً بالعادات والتقاليد والفنون بأنواعها وكل ما يمكن أن يكتسبه الفرد أثناء عيشه مع جماعة ما. ولأن الثقافة كما قلنا سابقاً دائماً التطور والتحرك، تغيرت نظرة النقاد لها في الفترة التي تسما بفترة ما بعد الحداثة، هذه الفترة عرفت ظهور تيارات ونظريات فلسفية ونقدية وأدبية مناهضة للتيارات التي كانت سائدة في فترة الحداثة، وهذا ما ساهم في بزوغ رؤى جديدة حول الثقافة، ظهرت هذه الرؤى تحديداً مع رواد الدراسات الثقافية من أمثال " هوغرت " و"ريموند ويليامز" و"ادوارد سعيد"...، فأصبحت الثقافة ترتبط بالخطابات غير الرسمية أو غير الحكومية، تعنى بالمهمش وبتقافات الشعوب التي كان ينظر لها على أنها شعوب من الدرجة الثانية، ومن هنا توطدت العلاقة أكثر بين الثقافة والهوية خاصة مع أطروحات ما بعد الكولونيالية والتي حاولت إعطاء قيمة أكبر للأنا (شعوب العالم الثالث) في مواجهة الآخر الغربي، أي أن الهوية هنا ترتبط بذلك الصراع بين الأنا والآخر.

وفي هذا السياق وعند حديثنا عن العلاقة التي تربط الهوية بالثقافة نشير إلى تلك العلاقة التي طرحها عالم الاجتماع " هارلبس " حيث " ترتبط فكرة الهوية بإحكام إلى فكرة الثقافة، والهويات يمكن أن تتشكل عبر الثقافات الرئيسية والثقافات الفرعية التي ينتمي لها الأفراد أو التي يشاركون فيها، والعديد من نظريات الهوية ترى العلاقة بين الثقافة والهوية تأخذ أشكالاً مختلفة، فالباحثين الذين تأثروا بالنظريات الحديثة للثقافة والهوية، ينظرون إلى الهوية باعتبارها نشأت بطريقة واضحة من الانخراط في ثقافات معينة"² فالهوية حسب تنشأ عبر الانخراط في ثقافة معينة لكن تلك الهوية تختلف قوة ارتباطها بموطنها أو مجتمعها بين الثقافات الرئيسية والثقافات غير الرئيسية، على سبيل المثال الفرد الذي ولد في بلد يحمل عرقه ودمه، يكون تعلقه بهويته الوطنية أكبر من الشخص الذي يحمل جنسية هذا البلد لكنه من عرق آخر، فهو دائماً ما يميل إلى ثقافته الأصلية، ويؤكد هذا الكلام " ستيفن فروست " الذي يعتبر " أن الهوية إفراز من الثقافات ولكنها لا تتكون منها"³ غير أن هذا لا يمكن أن يبطل بأي حال من الأحوال تأثير الثقافة المستقبلة على هوية الشخص الدخيل عليها، وإن كان ذلك بشكل نسبي أو على الأقل يستعمل هذه الثقافة الجديدة كوسيلة للدفاع عن مقومات هويته السابقة، وهذا ما فعله نقاد الدراسات ما بعد الكولونيالية حين استفادوا من تكوينهم اللغوي الجديد لتمرير أعمالهم الإبداعية والنقدية التي تحمل فكرة الدفاع عن هويتهم المسلوقة وفكرة المساواة بين الأنا المضطهدة والآخر المتعالي.

¹ سمير خليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، د.ط، 2004، ص82

² هارلبس وهولبورن: سوشولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، ط.1، 2010، ص14

³ المرجع نفسه: ص15

يمكن تعريف الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم بأنها " القدر الثابت والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات والتي تجعل الشخصية الوطنية والقومية القومية اطابع يتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخر كما أنها" ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء.

وهناك من يرى " أن الهوية معناها في الأساس التفرد، والهوية الثقافية هي التفرد الثقافي، بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وقيم ونظرة إلى الكون والحياة ترى الباحثة أن الهوية الثقافية هي كل ما يميز أمة عن أمة بكل ما تحمله من قيم وعادات وسلوكيات وتاريخ مشترك؛ ونجد في الكتابات المعاصرة أن الهوية الثقافية تشير في غالب الأحيان إلى الهوية الوطنية.

الهوية الثقافية مستويات ثلاثة كما حددها الجابري: فردية، وجموعية، ووطنية قومية. والعلاقة بين هذه المستويات تتحدد أساسا بنوع "الأخر" الذي تواجهه، وعلى العموم، تتحرك الهوية الثقافية على ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد: فالفرد داخل الجماعة الواحدة، والجماعات، داخل الأمة، والوألمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى. غير أن هذه الأخيرة أكثر تجريدا، وأوسع نطاقا، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع والتخالف، والعلاقة بين هذه المستويات ليست قارة وال ثابتة، بل هي في مد وجزر دائمين، يتغير مدى كل منهما اتساعا وضيقا، حسب الظروف وأنواع الصراع والالصراع، والتضامن والاتضامن، التي تحركها المصالح: المصالح الفردية والمصالح الجموعية والمصالح الوطنية والقومية.

ويرى الجابري أن العالم بوسائله التكنولوجية يعد من إحدى وسائل العولمة للتأثير على ثقافة الشعوب وهويتها الثقافية فيقول: " إعطاء كل الأهمية والأولوية لا لعالم الأحداث التغييرات المطلوبة على الصعيد المحلي والعالمي، باعتبار أن "الجيوبوليتيك"، أو السياسة منظورا إليها من زاوية الجغرافيا، وبالتالي الهيمنة العالمية، أصبحت تعني اليوم مراقبة "السلطة الامادية"، سلطة تكنولوجية العالم التي ترسم اليوم الحدود في "الفضاء السبيرنتي": حدود المجال الاقتصادي السياسي التي ترسمها وسائل الاتصال الإلكترونية المتطورة، وهكذا فبدلا من الحدود الثقافية، الوطنية والقومية، تطرح إيديولوجيا العولمة "حدودا" أخرى، غير مرئية، ترسمها الشبكات العالمية قصد الهيمنة على الاقتصاد والأذواق والفكر والسلوك "

يقول "أمين معلوف" عن مكونات الهوية الفردية في كتابه الهويات القتالة أن هوية أي شخص هي: "مجموعة من العناصر ال تقتصر بالطبع على تلك المدونة في السجالة الرسمية أو بطاقة التعريف La pièce de identité >

بل هناك بالنسبة للغالبية من الناس الانتماء إلى تقليد ديني appartenance à une tradition > religieuse أو إلى جنسية وأحيانا جنسيتين وإلى مجموعة اثنية أو لغوية groupe ethnique ou linguistique > وإلى عائلة أكبر أو أقل اتساعا وإلى مهنة ومؤسسة ووسط اجتماعي ما... " وهذه العناصر المشكلة للهوية الفردية يمكن أن نقول عنها حسب أمين معلوف بأنها موروثات « âme'l de gènes les » بشرط أن نوضح أن معظمها ليس فطريا « innés » بل فيهما يتغير بتغير الزمن، وتغير التصرفات»¹

ب- أزمة الهوية الثقافية في مواجهة الثقافة الغربية

لقد تطرق أمين معلوف في كتابه الهويات القتالة إلى موضوع الهجرة إذ هناك الكثير من المهاجرين يعانون في البلدان الغربية والتي تحمل ثقافة غير ثقافتهم. فيرى معلوف أن هناك صعوبة في التأقلم في البلد المبتنى فيلجئون إلى تقليد أبناءه ومحاولة تجاهل شعورهم بالإختلاف كونهم ببساطة لا يمتلكون أسماءهم أو عرقهم لذلك يجدون صعوبة في محاولة ظهورهم كأبناء ذلك البلد «ولكن سرعان ما يفتضح أمرهم، ويدرك الكثيرون منهم أن لا جدوى من المحاولة فيظهرون عندئذ ، بدافع الإعتزاز أو التحدي ، أكثر اختلافا مما هم عليه في الواقع ، ويتمادى البعض _هل من داع للتذكير بذلك؟_، ويفضي احباطهم إلى معارضة عنيفة.»² فالمهاجر يحاول الظهور كأنه ابن البلد فتجده يندفع للعمل على ذلك دون شعور كلغته ومظهره وحتى أفعاله ، لكي يظهر بصورة قريبة لما يسير عليه ذلك البلد ولكنه في النهاية يجد صعوبة في ذلك ويتيقن في الأخير أنه لا جدوى من ذلك فيحاول اظهار أنه مختلف عنهم «ففي الكثير من البلدان التي يتعايش فيها اليوم سكان أصليون يحملون ثقافة محلية ، وسكان آخرون وفدو حديثا يملكون تقاليد مختلفة ، تبرز توترات ترخي بظلالها على سلوك كل منهما ، وعلى المناخ الاجتماعي والسجال السياسي. ولذا، لابد من تناول هذه البضائع الحساسة بحكمة وروية.»³ ولابد من الإشارة إلى ظاهرة الهجرة التي أصبحت تهدد أمن الغرب فالمهاجرين قد ينقلون الأمراض وكذلك الخوف من انتشار الآفات

¹ سهيلة زوار: إشكالية الهوية الثقافية الجزائرية في ظل الإعلام الجديد، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية - جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، العدد 23، سبتمبر 2017، ص 187-188.

² أمين معلوف: الهويات القتالة، ص 59-60.

³ المرجع نفسه: ص 60.

الاجتماعية من جريمة. فنجد الكثير من الدول تتصدى لها بالقوة كما أنهم يخافون على موروثهم الثقافي فهم ينظرون بنظرة تعالي لمورثهم الثقافي وبأن الثقافات والحضارات الأخرى أقل شأنًا من ثقافتهم.

وفي موضوع الهجرة يرى معلوف أن هناك تعريفان أساسيان الأول هو أن البلد المضيف صفحة بيضاء وحياة جديدة للمهاجر يقوم ويفعل ما يريد في حين الثاني أن البلد المضيف له قوانين لذلك يندد بوجوب احترامها فيقول: «يجب احترام تاريخ هذا البلد المضيف _وعندما أتحدث عن التاريخ ، أقولها من منطلق شغفي به، فهذا المفهوم ليس مرادفا عندي لحين لا يجدي نفعا أو لنزعة نحو الماضي ، بل هو يشمل ، على العكس ، كل ما جرى بناؤه على مر القرون ، الذاكرة والرموز والمؤسسات واللغة والأعمال الفنية ، والأشياء التي يعتبر التعلق بها مشروعاً.»¹

فمعلوف يؤكد على ضرورة احترام البلدان المضيغة كون لكل بلد تاريخه والتشديد على ذلك مثلما يحترم بلده وهذا حدث لكاتبنا عندما هاجر من لبنان إلى فرنسا إذ أنه بعد مدة أصبح يحس بأنه جزء من هذا البلد فيلامس احجاره حسبه ويكتب كتبه بلغته أي أنه يشعر بالإنتماء لهذا البلد. وهذا ما يجعله يرى أن حتمية التبادل الثقافي لا مفر منها فيقول: «لهؤلاء وأولئك، وأشدد على ذلك، فهناك دائما في مقاربتني، شرط التبادل _النابع من الحرص على العدل والفعالية. ومن هذا المنطلق، أود أن أقول «لهؤلاء» أولاً: «كلما انطبعتم بثقافة البلد المضيف، استطعتم طبعه بثقافتكم»، ثم انبري «لأولئك» قائلا: «كلما احترمت المهاجر ثقافته الأصلية، انفتح على ثقافة البلد المضيف»²

فالكاتب يدعو إلى الإندماج الثقافي والتبادل الثقافي بين من يملكون ثقافة أصلية وغيرهم ممن هاجروا إليه كون أنه يدعو إلى القبول بثقافة الآخر والدعوة إلى التعدد الثقافي والإبتعاد عن العنصرية. وعليه يرى معلوف ضرورة احترام ثقافة الآخر والانفتاح عليها وهذا ما دعى إليه في كتابه في قوله: «إنهما «معادلتان» صوغهما بالروحية نفسها لأنها تتماشيان معا كقائمتي الكرسي، أو بالأسلوب أكثر ابتداءً، كالبنود المتتالية في أحد العقود. فهذا هو بيت القصيد في الواقع، وهو يقوم على اتفاق معنوي يجب تحديد عناصره في كل حالة: ما الذي في ثقافة البلد المضيف يشكل جزءا من الحد الأدنى الذي يفترض بكل شخص الانتماء إليه، وما الذي يمكن معارضته أو

¹أمين معلوف: الهويات القتالة، ص 61-62.

²المرجع نفسه : ص 62-63.

رفضه بصورة مشروعة؟ والسؤال نفسه يصح على الثقافة الأصلية للمهاجرين: ما هي مقومات هذه الثقافة التي تستحق أن تنقل إلى بلد التبنى كهبة ثمينة، وما هي العادات والممارسات التي يجب أن تبقى في «غرفة الانتظار»¹

فرى معلوف يتساءل على الأشياء المرفوضة في الثقافة الغربية كالثقافة الغربية كالثقافة العربية إذ هناك أشياء تخيفهم وتقلقهم في الثقافة الإسلامية أهم يرون احتمالية ترسيخ ثقافتهم لذلك يكتفون بقبول مظاهر الثقافة التي لا معنى لها والتي حسبهم لن تؤثر على معتقداتهم وهذا ينطبق على المهاجرين أيضا فهناك أشياء يتقبلها المهاجر دون حرج في حين هناك أشياء لا يتقبلها ومثال ذلك الدين فهي تؤثر على انتماءهم فتجده لا يستقبل الديانة المسيحية ولكنه يتقبل اللغة كون اللغة عنصر مكتسب لا يؤثر على الانتماء فيقول: «إذا انتميت إلى بلد التبنى، واعتبرته بلدي، واقتنعت بأنه أصبح جزءا مني وانتي صرت جزءا منه، وتصرفت على هذا الأساس يحق لي بالتالي أن أنتقد كل جانب من جوانب. وبالمقابل، إذا احترمني هذا البلد واعترف بإسهامي واعتبرني، مع كل خصوصياتي، جزءا منه يحق له أن يرفض بعض الأوجه في ثقافتني التي قد لا تنسجم مع أسلوب عيشه أو ذهنية مؤسساته»²، فالانتماء إلى بلد أجنبي أو تبنيك من طرف بلد أي أن يصبح جزءا لا يتجزأ منه وهذا ما شعر به أمين معلوف فشعورك بالانتماء يعزز شعور الاحترام اتجاهه ويحث عليك واجبات اتجاهه وحقوق لك عليه مع احقيته برفض مظاهر ثقافتك التي يراها غير ملائمة لثقافته فالتبادل الثقافي له العديد من الأشكال الايجابية لأنه لا يعمل على محو ثقافة المهاجرين الأصلية كما لا يمس ثقافته.

وعليه فمعلوف يرى أن الاحترام المتبادل بيننا وبين الآخرين هو الوسيلة لتعزيز روابطنا وتقبل الانتقاد قصد فتح آفاق جديدة وعليه تجنب الإنغلاق ورفض الانتقاد كون أن الانفتاح عملية ايجابية لرسم حدود حضارتنا.

وعليه فالكاتب يدعو الى الاضطلاع بالانتماء المزدوج والهوية المركبة والانفتاح على ثقافة البلد الآخر وفي نفس الوقت الحفاظ على انتماءنا لثقافتنا الأصلية فهنا يدعو إلى التعايش ونبد التميز الثقافي سواء من المهاجرين وحتى الذين ولدو في الغرب مثال ذلك الجزائري المولود في فرنسا. ومن طرف أبناء البلد المضيف.

ج- أزمة الهوية الثقافية في زمن العولمة بين الخصوصية والكونية

تتكون الهوية الثقافية لبلد ما عبر تطوره التاريخي فكل الأحداث والصراعات والقيم والتراث بكل أنواعه الخاصة بهذا البلد تسهم في تشكيل وبناء هويته الثقافية بحيث تتميز الهوية الثقافية من مجموعة من العناصر منها

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 63.

² المرجع نفسه: ص 64.

الثابتة والمتغيرة فحابر عصفور يقول أن: «الهوية الثقافية» تتكون من عناصر ثابتة، عميقة الجذور، ضاربة في العمق التاريخي للأمة التي تنتسب إليها الثقافة، وعناصر متغيرة مشروطة بالتاريخ المتحول لهذه الأمة بكل لوازمه وعملياته متباينة الخواص، أقصد إلى تلك العمليات التي تأتي من الخارج، متفاعلة مع العناصر الثابتة التي تتأثر بها وتؤثر فيها على السواء»¹

إن مظاهر العولمة الثقافية كانت موجودة منذ القدم إذ كانت اللقاءات بين الشمال والجنوبي والشرق والغرب فكانت الشعوب في حالة إتصال بسبب المبادلات والتجارة وهذا ما جعل بينهما علاقة تأثير وتأثر. ولقد أسهمت العولمة بشكل كبير جدا في تقريب الشعوب فجعلت منه قرية صغيرة فالتطور التكنولوجي الحاصل في السنوات الأخيرة التي لاحقت الحرب العالمية الثانية تسارعت وتيرة العولمة بشكل كبير فلم تعد الشعوب قادرة على الحفاظ عن ثقافتنا الأصلية ضد العولمة ففي الدول العربية الإسلامية نرى بأن هناك موقفان موقف رافض للعولمة يأخذ ما يناسبه ويتخلى عن الباقي وموقف يقبل بكل حداثة ولا يهتم بأصالة ثقافته وهذا ما جعل العالم الإسلامي في قلق منها كون أن تأثيراتها اوضحت واضحة على شعوبه فيقول معلوف في كتابه وقد ينزع البعض إلى رفض كل شيء دفعة واحدة والتفوق داخل «هويتهم» مطلقين اللعنات المثيرة للشفقة ضد العولمة والكوكبة والغرب المتفوق أو أمريكا التي لا تطاق. وعلى العكس، قد يكون البعض الآخر مستعدا لتقبل و«ابتلاع» كل شيء، دون تمييز، بحيث لا يعودوا يعرفون من هم، ولا إلى أين يسير العالم! انهما موقفان يقع كل منهما على طرف نقيض من الآخر، ولكنهما يلتقيان في نهاية المطاف أن كليهما يتسمان بالإستسلام. فكلاهما _المرير والمعسول، المتذمر والأبله _ينطلقان من افتراض واحد، وهو أن العالم يتقدم كالقطار على السكة، ولا شيء قد يؤدي إلى انحرافه عن مساره.»²

فمعلوف تحدث عن كمية الأصالة التي فقدنا بسبب العولمة والحدثة فحسب المؤرخ مارك بلوخ يقول: «البشر هم أبناء عصرهم أكثر من آباؤهم»³. فحسب معلوف إننا كل يوم نزداد قربا من معاصرنا في حين نبتعد عن تراثنا وأجدادنا ماديا ومعنويا وأيضا من ناحية التفكير فالأشياء المشتركة التي تجمعنا مع أشخاص غرباء حول العالم تزيد ما نشترك به مع أجدادنا وهذا بسبب العولمة الثقافية فيقول معلوف: «إننا جميعا أقرب بكثير حكما

¹ جابر عصفور: الهوية الثقافية والنقد الأدبي، سلسلة العلوم الإجتماعية، دار الشروق، القاهرة، مصر، د.ط، 2010 ص ص 81-82.

² أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 143.

³ المرجع نفسه: ص 144.

من معاصرنا مما نحن عليه من أسلافنا.¹ وعلى الرغم من إيجابيات العولمة في مختلف المجالات إلا أنها سلبية على هويتنا الإسلامية وعلى انتمائنا ولها دور في طمس هويتنا. فحسب معلوف لم يعد باستطاعتنا أن نقول إننا مسيحيون _ أو مسلمون أو يهود، أو بوذيون أو هندوس _ فرؤيتنا للعالم وللغيب على حد سواء لا علاقة لها مطلقاً برؤية اخواننا في الدين الذين كانوا يعيشون منذ خمسة قرون.²

فمعلوف هنا يرى أن هناك الكثير من السلوكيات والأفعال الدينية التي لم يكن لها وجود قديماً أي أجداده وبالتالي فالكثير تغير بسبب العوامل والمظاهر الثقافية في حين يراها البعض عكس ذلك وإنما تمازجاً ثقافياً «وخلاصة القول إن كلا منا مؤتمن على إرثين: الأول «عمودي» يأتيه من أسلافه وتقاليد شعوبه وطائفته الدينية، والثاني «أفقي» يأتيه من عصره ومعاصريه. ويبدو لي أن الإرث الثاني هو أكثرهما حسماً، ويكتسب المزيد من الأهمية يوماً بعد يوم. ومع ذلك لا تنعكس هذه الحقيقة على إدراكنا لأنفسنا. فنحن لا ننتسب إلى إرثنا «الأفقي» بل إلى إرثنا الآخر.»³

فالمخطط الذي رسمه الكاتب هنا يوضح بنية الإنسان العربي المتأثر بالعولمة والتي تجعله يفقد شيئاً فشيئاً أصالته وانتمائه ويفقد ذلك الموروث الفكري والثقافي وحتى الديني لذلك يرى معلوف أن هناك فراغاً كبيراً بين ما نحن عليه وبين ما نحسب أننا عليه فهو يرى انقساماً في ذاتنا جهة منا متأثرة بالعولمة ومن جهة أخرى ننتمي لجماعة أخرى دينياً وقومياً ووطنياً ولم ننكر و ننتصل منه.

حسب معلوف هناك منافسة بين الشعوب والثقافات من أجل إظهار الإختلاف، فالحضارة الأوروبية حاولت الإنفراد بثقافتها إلا أنها عندما استعمرت الدول الأخرى بدأت في نشر ثقافتها ولغتها فكانت كل هذه البلدان المستعمرة تبحث عن أكبر توسع لقوتها وتصير تلك المناطق تحت سيطرتها وحكمها ورغم ذلك فحسب معلوف نسير نحو تقليص هذه الإختلافات بفضل العولمة الثقافية وذلك في قوله: «يبدو كأنني اغتبط لذلك. فهل هناك ما يدعو للاغتراب لرؤية البشر أكثر فأكثر تشابهاً؟ ألا نكون سائرين نحو عالم رمادي لن نتكلم فيه عما قريب سوى لغة واحدة، ويتقاسم فيه الجميع الحد الأدنى من المعتقدات، وتتابع فيه على شاشة التلفاز المسلسلات الأمريكية عينها ونحن نمضغ الشطائر نفسها؟»⁴

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 145.

² المرجع نفسه: ص 145.

³ المرجع نفسه: ص 146.

⁴ المرجع نفسه: ص ص 147-148.

وهذا هدف العولمة إذ أن مظاهرها في كل مكان وبقعة في العالم لذلك كان هناك موقف رافض لها كونها ترى على أنها تهديد لثقافته وقيمه وهويته وموقف مخالف لم يعرهما اهتماما. فحسب معلوف يرى أن العولمة تسير بنا نحو طريقين مختلفين الأول مقبول نوعا ما والآخر مرفوض وهذا يقودنا الى تحديد الفرق بين العولمة والعالمية والتي تعني السيطرة أي محاولة ابقاء ثقافة والقضاء على الثقافات الأخرى ومسحها.

د- الهوية الثقافية بين العالمية والكونية

تحدثنا فيما سبق عن رؤية امين معلوف اتجاه العولمة والعولمة الثقافية ودعوها الى محاولة تجسيد وترسيخ مبدأ الثقافة الواحدة ومحاولة مسح الثقافات الاخرى كما انها ارادت تشابه ورفضت فكره التنوع والتماثل فاغلب الباحثين والمفكرين يروننا بأنه فعل غير عادل بحق الثقافات الاخرى وهذا ما رفضه معلوف باستثناء في حال إذا احترمت حريه وحقوق الشعوب وعليه وجب علينا ان نركز على هذين المفهومين (العالمية والكونية) كما سنتطرق للتأثير كل منهما على ثقافات الشعوب الاخرى.

ولقد ذكرنا سلفا ان معلوف خالف السلوك الذي يجسد الثقافة واحده على حساب الثقافات اذ يجب احترام كل اختلافات في رايه ويتحدث عند فرضيه الأساسية للعالمية في قوله: «تقوم المسلمة الأساسية للعالمية على أن هناك حقوقا ملازمة لكرامة الكائن البشري لا يجب أن ينكرها إنسان على بني جنسه بسبب دينهم أو لون بشرتهم أو جنسيتهم أو جنسهم أو أي سبب آخر، مما يعني من بين أمور أخرى، أن كل انتهاك لحقوق الرجال والنساء الأساسية باسم هذا التقليد الخاص أو ذاك الديني على سبيل المثال_ ينافي روحية العالمية. فلا يمكن أن توجد من جهة شرعية عالمية لحقوق الإنسان؛ ومن جهة أخرى، شرعات خاصة، شرعة مسلمة، وشرعة يهودية، وشرعة مسيحية، وشرعة أفريقية، وشرعة آسيوية، إلخ.»¹

وعليه فالعالمية هي الدعوة ايضا لحماية حقوق الافراد والحريات عكس العولمة التي تحاول اقصاء الاخر من جميع الجوانب بما في ذلك الجانب الديني. فالعولمة الثقافية تهدف الى احداث شرخ في المجتمعات الإسلامية والعربية من قيمها الحقيقية التي نصها الاسلام ومنه تعد سلبيه فقد رأينا اسهامات العولمة في زيادة الحروب والصراع بين الشعوب وداخلها على خلاف العالمية التي تهدف الى التنوع والتقبل مع الحفاظ على خصوصيات ثقافه الشعوب كونها تؤمن بمبدأ الاختلاف اي التأثير الايجابي لا السلبى وكونها تدعو الى احترام البشر.

¹ أمين معلوف : الهويات القاتلة ،ص150 .

اذن العالمية. «UNIVERSALITE-UNIVERSALISME»، هي طموح إلى الارتفاع بالخصوصية على مستوى عالمي: العولمة احتواء للعالم، والعولمة تفتح على ما هو كوني عالمي. نشدان العالمية في المجال الثقافي، كما في غيره من المجالات، طموح مشروع، ورغبة في الأخذ والعطاء، في التعارف والحوار والتلاقح. إنها طريق الأنا للتعامل مع الآخر بوصفه أنا ثانية طريقها إلى جعل الإيثار يحل محل الأثرة، أما العولمة فهي طموح بل إرادة لاختراق الآخر وسلبه خصوصيته، وبالتالي نفيه من العالم. العالمية إغناء للهوية الثقافية، أما العولمة فهي اختراق لها وتمييع. والاختراق الثقافي الذي تمارسه العولمة يريد إلغاء الصراع الأيديولوجي والحلول محله.¹

إذن العالمية هي النموذج الأقرب لحماية خصوصية الشعوب الثقافية والدينية على خلاف العولمة التي تريد تجسيد ثقافة واحدة الحضارة مهيمنة تريد فرضها على جميع الثقافات الأخرى. إلا أن إدوارد سعيد يرى عكس وجهة نظر أمين معلوف حول ايجابية مصطلح العالمية على العولمة فإدوارد سعيد «يفضل مصطلح "الكونية" التي تشمل جميع الثقافات الإنسانية الموجودة في الكون على مفهوم "العالمية" المنطلقة من فكرة العولمة الأمريكية الحاملة في طياتها العديد من الأيديولوجيات الأمريكية القطبية التي تريد أن تحكم العالم وفق نظرة واحدة. فالكونية بأجمل تجلياتها هي أن تكون ابناً للكون، بالمعنى السياسي والأخلاقي والثقافي، من دون الاتصال بارتباطات خاصة تفصلك عن العالم الآخر، بل تكون هذه الارتباطات متعايشة مع بعضه البعض²» فسعيد يفضل مصطلح الكونية على مصطلح العالمية كونه يحمل نفس تأثير العولمة أي انهما تحملان نفس التأثير الشمولي المسيطر على الثقافات الأخرى عكس رؤية معلوف.

ومعلوف يرى أن هناك تضارب في الآراء إذ أن هناك من يؤيد وهناك من يعارض لذلك أعطى مثالا عن الحكومات الغربية التي تدعي حمايتها لحقوق الإنسان، فالنظرة مختلفة بين تلك النظرات التي تتجه إلى إفريقيا والشرق الأوسط وإلى كوبا وبلونيا وذلك في قوله: «وهو موقف يدعي الاحترام ولكنه في نظري محتربعمق. أن نحترم أحدهم ونحترم تاريخه هو أن نعتبره ينتمي إلى الإنسانية ذاتها وليس إلى إنسانية مختلفة، إلى إنسانية رخيصة. لا أريد التوسع حول هذه المسألة (...). ولكنني متمسك بإثارها هنا لأنها أساسية لمفهوم العالمية،

¹البشير ربح وآخرون: السؤال عن الهوية، في التأسيس والنقد والمستقبل، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، ط1، ص2، 180.

²سعاد العنزي: تقاطعات الهوية عند إدوارد سعيد ومحمود درويش، جريدة القدس العربي، يومية سياسية مستقلة، السنة السادسة والعشرون - العدد 7876، الثلاثاء 23 سبتمبر 2 ص12.

الذي يفقد معناه إذ لم يفترض وجود قيم تخص كل الكائنات الإنسانية دون أي تمييز. فهذه القيم تنصدر كل شيء»¹

إذن فالعالمية هدفها حماية حقوق الشعب إضافة إلى أنه وجب على المنظمات التي تحاول وتدعي محاولة تقديم العون لكل من يحتاج المساعدة وأن لا تقدم أحد على أحد أو شعب على شعب و النظر إلى الشعوب نظرة متساوية فبمجرد حدوث ذلك فإن العالمية تكون قد أوصلت فكرتها وهدفها في تحقيق التنوع والإفتاح على الآخر ولقد دعى معلوف إلى التخلي عن هذه التصرفات والتي خلفتها الشعوب والعقائد والتي لا تتوافق مع الكرامة الإنسانية لذلك وجب إلغاؤها لأن «كل ما يتعلق بالحقوق الإنسانية _حق العيش كمواطن بالكامل على أرض الآباء دون التعرض لأي اضطهاد أو تمييز، حق العيش أينما كان بكرامة، حق الاختيار الحر لنمط الحياة والعلاقات الغرامية والمعتقدات التي نريد، في ظل احترام حرية الغير، حق الحصول على المعرفة والعناية الصحية و الحياة الكريمة دون عراقيل - كل ذلك، وهذه القائمة هي على سبيل المثال لا الحصر، لا يمكن أن يحرم منهبنو جنسنا بحجة حماية معتقد أو ممارسة سلفية أو تقليد موروث. وفي هذا الإطار، يجب النزوع نحو العالمية بل، إن اقتضى الأمر، نحو التجانسية، لأن البشرية واحدة أولاً بالرغم من تعددها.»²

وهذا ما دعى إليه معلوف اذ يبحث على احترام خصوصية كل ثقافة وحضارة وهذا جوهر العالمية وهذا ما تدعو إليه عكس العولمة الثقافية التي تهدف إلى مسح ثقافتنا وديننا وهويتنا والعالمية حسب رؤية "معلوف" هي منهج لاحترام كل الحقوق والحريات وبذلك تكون ضد العولمة في رؤيتها ومنهجها، والتي تدعو إلى هذا الإقصاء والنظرة المركزية الواحدة، فالأمة حسب "معلوف" هي واحدة بالرغم من اختلافها وتعددتها، وهذا ما جاء به الدين الإسلامي، بموازاة المعركة من أجل شمولية القيم، يجب النضال ضد التجانس الإفقاري وضد الهيمنة الأيديولوجية أو السياسية أو الاقتصادية أو الإعلامية، ضد الإجماعية التبليدية، ضد كل ما يكتم وسائل التعبير اللغوية والفنية والفكرية، ضد كل ما يذهب في اتجاه عالم رتيب وطفولي. انها معركة للدفاع عن بعض الممارسات وبعض التقاليد الثقافية، ولكنها معركة ذكية، متطلبة، انتقائية، دون تحفظ، ودون غلو في الخوف، ومع الإفتتاح الدائم على المستقبل.»³

1. أمين معلوف: الهويات القتالة، ص151

2. المرجع نفسه: ص152.

3. المرجع نفسه: ص152-153.

ومنه فأمين معلوف يصرح بضرورة مواجهة العولمة الثقافية كونها، تعد هيمنة وسيطرة للأفكار ومحاولة ترسيخ أفكار جديدة دون أن تراعي الإختلاف والتنوع فبالرغم من إيجابيات العولمة إلى أنها تملك سلبيات أكثر كونها لا تهدف إلى التأثير ثقافة بثقافة أخرى مع الإبقاء على خصوصيتها، وانما تهدف إلى محو بعض الثقافات فهي ترى ضرورة بقاء الثقافة المسيطرة وزوال الثقافات المسيطر عليها.

هـ - قضية التهجين والتمازج الثقافي:

لقد تناول أمين معلوف في حديثه التمازج الايجابي بين الثقافات أي أنه يفند أطروحة صدام الحضارات والثقافات التي أقرها الغرب خوفاً عن ثقافتهم وذلك نظراً للكثير من النظريات حول التمازج والتهجين فكل له منظوره إزاء هذه الأفكار فهناك من يرى أن التمازج والتهجين يساهم في محو خصوصية الثقافة وأهم أصحاب هذا الرأي الغربيون في حين هناك من يرى في التهجين أمراً إيجابياً لا مفر منه وأهم أصحاب هذا الطرح نجد أمين معلوف وإدوارد سعيد وغيرهم...

ويرى معلوف أن هناك تغير في تصرفاتنا وأهدافنا وحتى طريقة عيشنا ورؤيتنا للعالم ولأنفسنا في نفس الوقت ناجم عن تلك الأفكار والصور والمنتجات حيث نستنتج من هذا التمازج الرائع حقائق متناقضة فعلى سبيل المثال، اليافطات الشهيرة لمطاعم الوجبات السريعة في أكبر شوارع باريس وموسكو وشانغهاي أو براغ، ولكننا نصادف كذلك في كل القارات المزيد والمزيد من المطاعم المتنوعة، لا الإيطالية أو الفرنسية أو الصينية أو الهندية التي قد انتشرت في الخارج منذ وقت طويل، بل المطاعم اليابانية والأندلسية والكورية والمكسيكية والمغربية أو اللبنانية.¹

لقد طغت صناعة الوجبات السريعة اذ ظهرت في بداية القرن التاسع عشر وانتشرت في جميع أنحاء العالم بفضل العولمة الثقافية الأمريكية إلا أن بعضاً من هذه الثقافات مازالت محافظة على ثقافتها العريقة واستطاعت بدورها التأثير على الشعوب كالمطعم الكوري والصيني والمغربي واللبناني ليظهر لنا هذا التنوع والتمازج الرائع وهذا ما دعى إليه معلوف من خلال أفكاره ففي فرنسا هناك مطاعم مختصة في الطعام الجزائري تقدمه الجالية الجزائرية.

ويضيف معلوف حول التأثير بفن الطبخ والذي يعد أحد مظاهر العولمة الثقافية. فظاهرة التمازج ظاهرة معبرة عما قد يعنيه الإختلاط في الحياة اليومية، ومعبرة كذلك عن استجابات البعض والبعض الآخر. فمن من

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 153.

الناس في الواقع لا يرون في هذا التطور سوى جانب واحد، أي شغف بعض الشبان بالوجبات السريعة على الطريقة الأمريكية. وأنا لست من أنصار التساهل والإنسياق، وأقدر كل التقدير الأشخاص الذين يقاومون، فالكفاح من أجل حماية الطابع التراثي لأحد الشوارع أو الأحياء أو لنوعية حياة يشكل معركة مشروعة وضرورية في أغلب الأحيان، ولكنها لا يجب أن يحجب عنا المشهد بالكامل»¹

ويرى معلوف بفضل العولمة الثقافية تم انتشار فن الطبخ وهو لا يرى أية مشكلة في ذلك بل يراه شيئاًيجابياً كونه يساهم في تقارب وتنوع الثقافات. وعليه فمعلوف يدعو إلى التعدد والاختلاف والتنوع وقد يرى العديد من الناس ولع الشباب بالمأكولات الأمريكية ظاهرة وشيئاً عادياً إلا أن معلوف يراها ظاهرة لها دلالتها. والملاحظ أن معلوف رغم دفاعه عن هذا التمازج الثقافي إلا أنه يؤكد على ضرورة الحفاظ على هويتنا وثقافتنا الأصلية وتراثنا في وجه هذه الثقافة المسيطرة وعدم السماح للعولمة التلاعب بها. ومنه فمعلوف ليس رافضاً للعولمة الثقافية كما أنه يدافع عن التراث والعادات والتقاليد التي تكون أصالتنا ولكنه يريد انتشار هذه الظاهرة كونها ليست مصدر قلق له.

وهذا النوع من التأثير الثقافي والتمازج بالمطبخ يسمى "الماكدونالدية" وهذا يرجع إلى المحلات المنطلقة منه ماكدونالد فالماكدونالدية هي «صورة للفكرة الحالية عن التجانس العالمي للمجتمعات نتيجة تأثير المجتمعات متعددة الجنسيات. والماكدونالدية طبقاً لعالم الاجتماع "جورج ريتزر" George ritzer هي العملية التي بها ستسود مبادئ مطاعم الوجبات السريعة قطاعات متزايدة من المجتمع الأمريكي فضلاً عن بقية العالم.» وعليه فالماكدونالدية تعد أحد أشكال التهجين الثقافي تأثيرها مختلف باختلاف الدول إذا أنه بين كل دولة والنموذج الأصلي الأمريكي تتشكل نماذج جديدة.

إن ذلك التمازج والتأثير أو التلاقح الثقافي هو نوع من التهجين كون أن الغرب يؤمن بنظرية النقاء أو المركزية الثقافية والعرقية، وحتى من جانب الثقافة الإسلامية هناك البعض من التيارات المتشددة اتجاه هذه الثقافة حيث ترى في العولمة والحداثة والمظاهر الثقافية الغربية ويعتبر إدوارد سعيد «المهجنة لعبة الهويات المركبة التي تواجه الخطاب الأصولي، عبر النهل من ثقافات متعددة. وهو ما يتيح إمكانية تجاوز "ماهوية" الهوية نحو آفاق ثقافية رحبة أساسها التفاعل المستمر. وما دامت المهجنة تمجد التلاقح والتواصل، فإنها بذلك تدحض علاقة الصراع

¹ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 154.

والفرقة والانقسام بين الأنا والآخر. ولأن الهوية ليست ثابتة وسكونية بل تخضع لمنطق التحول والتغير فإن الهجنة مفهوم مناوئ للهوية الصلبة التي تصنف نفسها نقيضها للآخر، وتقييم الحواجز بين»¹

يعد أمين معلوف من الكتاب الذين يدعو في كتاباتهم إلى حوار الثقافات ورفض فكرة صدام الحضارات وذلك واضح في كتاباته الروائية والسياسية ككتابنا الهويات القاتلة إذ أن موقفه بالإيجاب مثله مثل العديد من المفكرين أمثال إدوارد سعيد ورفضوا فكرة الصدام الثقافي التي جاء بها صامويل هنتغتون في كتبه ويعتبر سعيد «ضد ما يسميه سياسات الهوية، ومع هجنة الهويات وتلاقح الثقافات، وضد صراع البشر القائم على الأصول والأعراق والانتماءات الجغرافية والمناطقية الصغيرة. وقد كان نضاله الأساسي في كتابته هو أن ينبه الغرب والشرق، الشمال والجنوب، إلى حروب البشر، التي تستند إلى ما يسميه صمويل هنتغتون صراع الحضارات، هي حروب مدمرة للهويات نفسها. مضرة بالبشر جميعا غالبين ومغلوبين»². ومن ثم ف"سعيد" ضد الفكرة القائلة بصراع الثقافات والحضارات حيث يرى في أن الصراع بين الشرق والغرب لا يعدو إلا أن يكون حرباً مدمرة لكلا الطرفين، وأنها تعود بالنفع لأي طرف لذلك دعى إلى الحوار والتعايش ولقد اتبع كاتبنا أمين معلوف نهجه أيضا في الكثير من أعماله خاصة في كتاب الهويات القاتلة.

كما تطرق كاتبنا أمين معلوف إلى مظهر آخر من مظاهر التأثير الثقافي وهو مظهر الفن الموسيقي فيقول: «كالموسيقى، على سبيل المثال لأن هذا المجال أيضا يتضمن تنوعا فريدا. فمن الجزائر، تصلنا أكثر الأنباء المروعة، وكذلك إيقاعات موسيقية إبداعية، يقوم بنشرها كل هؤلاء الشبان الذين ينطقون بالعربية أو بالفرنسية أو بالقبيلية؛ وقد ظل بعضهم في الجزائر، بالرغم من كل شيء، فيما رحل الآخرون، حاملين معهم، وفي أعماقهم، حقيقة شعب وروح ثقافة، راحو يقدمون عنهما الشهادات.»³

فمعلوف يرى أن الجزائر بلد له تاريخه الحضاري والثقافي وعلى الرغم من معاناة الجزائريين خلال العشرية السوداء وفي الحروب تناقلت الهوية الجزائرية من خلال هجرة الجزائريين إلى أمريكا والدول الأوروبية ورغم ذلك لم تمنع الجزائريين من نقل حضارتهم إلى الدول الأخرى. فالجزائر تحمل العديد من الثقافات العريقة التي تتمازج فيما بينها كالعربية والامازيغية والفرنسية. كما أن لها ثراء ثقافي ملحوظ في العادات والتقاليد والفن والمطبخ واللباس وغيرها

¹ هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد من دنوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلة الأزمنة الحديثة، مجلة فلسفية فصلية تعنى بشؤون الفكر والثقافة، عنوان العدد الإسلام والحداثة، العدد 8، يونيو 2014، ص 159.

² فنخري صالح: إدوارد سعيد: دراسة وترجمات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2009، ص 08-09.

³ أمين معلوف: الهويات القاتلة، ص 155.

وليس الجزائر فقط بل هناك تونس والمغرب كلها دول إفريقية تحمل إرثا ثقافيا واسع ساهم في التأثير على الثقافات الغربية وذلك في قول معلوف: «مسيرة الأفارقة الذين سيقوا في الماضي كعبيد نحو الأمريكيتين. وتنتشر موسيقاهم اليوم، قادمة من لوزيانا أو جزر الكاريبي في كل أنحاء العالم، وتشكل جزءا من تراثنا الموسيقي والعاطفي. فالعولمة هي ذلك أيضا.»¹

وعليه فللعولمة الدور الكبير في انتقال هذا المظهر الثقافي المتمثل في الموسيقى وهذا ما أدى إلى تمازج موسيقى الثقافات فبرى الأفارقة متأثرين بالموسيقى الغربية والغرب متأثر بموسيقى الافارقة. فبسبب العولمة الثقافية زاد التأثير التآثر بين الثقافات بسبب التقنيات الحديثة فأضحى أكثر تأثيرا مقارنة بالماضي.

وعلى الرغم من القلق الذي تسببه العولمة إلا أن هناك تضارب في الآراء اتجاهها وتأثيرها يختلف بين شخص وآخر فهو ليس نفس التأثير بين أروبي وشخص مسلم متشدد في قوله: «فلا شيء يجمع بين صاحب مقهى باريسى يتضايق لأن المحطات الإذاعية لا تبث الكثير من الأغاني الفرنسية، وبين واعظ متشدد يسمي الصحون اللاقطة الصحون الشيطانية لأنها تنقل برأيه غناء حوريات الغرب، لا شيء يجمع بينهما سوى نوع من الريبة إزاء الثقافة الشمولية كما تتكون.»²

كما يرى معلوف أن هناك نوعان من المخاوف التي تسببها العولمة ولكنه اكتفى بطرح أحدهما فقط وهو أن «الفكرة القاتلة إن التمازج الراهن، وبدلا من أن يؤدي إلى اغتناء فريد وتعدد أساليب التعبير وتنوع الآراء، يقود، على العكس وبصورة لا تخلو من المفارقة، إلى الإفتقار. وهكذا، سوف يفضي تنوع الأساليب التعبيرية الموسيقية الجاححة في نهاية المطاف إلى شكل من الموسيقى تشوبها الغثاثة والتكلف؛ وهكذا، لن يولد اختلاط الأفكار الفريدة سوى الرأي الإجماعي والتبسيطي وأكثر القواسم الفكرية المشتركة ضحالة.»³

فمعلوف هنا يطرح مشكلة أن هذا الغليان حسب قوله لا بد من نقله إلى تنوع هائل في الآراء والأفكار فضررب مثلا أن تنوع التعابير الموسيقية لن يؤدي إلا لموسيقى مصطنعة ومتكلفة لا جديد فيها وعليه فالعولمة الثقافية أدت إلى كل ما هو ضده معلوف لكونها عولمة شمولية تهدف إلى محو الثقافات الأخرى وهكذا ستكون اغاني وافلامه متشابهة تدفعنا الى مشكلة عويصة هي النمطية. وانعدام الإبداع.

¹أمين معلوف: الهويات القاتلة: ص155.

²المرجع نفسه: ص ص157-158.

³المرجع نفسه: ص ص158-159.

الخاتمة

نختتم هذه الدراسة مع محطاتها المختلفة بتوصلنا إلى مجموعة من النتائج نلخصها كالاتي:

- الانتماء عند "معلوف" واسع؛ لأن هوية كل شخص تتحدد من خلال جملة من العناصر المختلفة والمتناقضة في أغلب الأحيان، أي أن الهوية ثابتة، ولكن عناصرها هي التي تحمل ميزة وخاصية الاكتساب، وقد ذهب إلى ذلك الناقد الفلسطيني/الأمريكي "إدوارد سعيد" من خلال حديثه عن الانفتاح، ونبذه لخاصية الثبات، فرؤية رواد ما بعد الكولونيالية للهوية نفسها عند "أمين معلوف"؛ فالهوية حسبهم ليست موروثة بل مكتسبة ومركبة تحمل خاصية التنوع والقبول.

- تسليط الضوء على العلاقة الفريدة وقدرة المجتمع الأوربي والديانة المسيحية في التأثير كل منهما على الآخر والذي جاءت مضاعفاته بالإيجاب إذ انعكس ذلك على تقدم أوروبا ككل وعلى النقيض فشل المجتمع والدين الإسلامي في قيامهما بالعملية نفسها، وهذا ما أدى إلى تراجع المجتمع الإسلامي والعربي وعجزه عن اللحاق بالركب الحضاري.

- تبيان "معلوف" أن للحدثان جانبين مهمين: أحدهما يرى أن للحدثان تأثير في القيم والثقافة الإسلامية والعربية من خلال رؤية فئة تنتمي إلى الدين الإسلامي؛ ومنهم الأصوليين خاصة، وجانب آخر يرى أنها لا تؤثر على الإسلام كون الاسلام نادى وندد بالحرية وحقوق الأفراد والجماعات مند ظهوره.

في دراسة "معلوف" للصيغة اللبنانية توصل إلى أنها يمكن أن توقف الصراع بين الأحزاب السلطة لكن ليس بشكل كلي؛ لأن ذلك التوزيع العادل لمقاعد السلطة في نظرهم يجعل كل طائفة تلتف حول مؤيديها.

محاولة "معلوف" تناول أسلوب الديمقراطية؛ كونه يرى فيها الوسيلة الأنجع لحماية الأقليات المضطهدة من التمييز والعنصرية، لكنه خلص إلى نتيجة مفادها أن الديمقراطية نفسها أصيبت بالعقم، فالعالم لا يحوي ديمقراطية واحدة بل ديمقراطيات متعددة.

التحديات والمعاناة التي يعيشها المهاجرين الأقلين في الدول الغربية واصطدامهم بمشكلة المحافظة على هوياتهم الدينية والثقافية، لذلك "معلوف" يدعو إلى احترام بلدان وحقوق ولغات الآخرين والاندماج فيهم، ووجوب تخفيف حدة التشدد اتجاه هويات الآخرين.

- محاولة "معلوف" تبين التأثير الكبير الذي تسببه العولمة كونها تهدف لجعل العالم قرية صغيرة، فراح يظهر سلبيات ذلك فحسب رأيه تعد العالمية أخطر من الكونية؛ فالعالمية تبحث عن السيطرة والهيمنة الواحدة في حين الكونية؛ تبحث عن التنوع الاختلاف، وهذا ما يصب في صالح الهويات الثقافية واللغوية ويدفع إلى التنوع والمحافظة على كل خصوصية هوياتية، فنراه يدعو إلى الحوار والتعايش الثقافي واللغوي على الرغم من تهديدات العولمة.

الملحق

من يكون أمين معلوف؟

أمين معلوف كاتب لبناني يحمل الجنسية الفرنسية ويكتب أعماله بها، ولد في بيروت يوم 25 فبراير 1949م، يعتنق الديانة المسيحية من أم أرثوذكسية وأب بروتستانتي، درس الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع ثم اشتغل بالصحافة كوالده، فلتحق بجريدة النهار البيروتية سنة 1970م، وعمل كملحق اقتصادي مهتم بالسياسة العالمية، وخاصة قضايا الصراع العربي الإسرائيلي.

هاجر بيروت سنة 1976م، بعد اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية ليستقر مع أسرته بفرنسا، عين رئيس تحرير مجلة *jeune afriain* مما سمح له بالانفتاح على دول وثقافات عديدة اهتم بالرواية معبرا عن أفكاره ورؤاه النقدية فأصدر الروايات والأبحاث الآتية:

- *Les croisades vues par les arabes* الحروب الصليبية كما يراها العرب بحث نقدي سنة 1983.
- *L'leon l'africain* ليون الأفريقي رواية سنة 1991م.
- *Samarcand* سمر قند رواية سنة 1988.
- *Les jardins de lumière* حدائق النور سنة 1991.
- *Le premire siècle après béatrice* القرن الأول بعد بياتريس رواية سنة 1992.
- *Le rocher de tanios* صخرة طانيوس رواية سنة 1993.
- *Les échelles du levant* موانئ المشرق رواية سنة 2996.
- *Les Identitésmeurtrières* الهويات القاتلة -قرارات في الإنتماءات والعولمة بحث نقدي سنة 1998.
- *Le périple de baldassare* رحلة بالدسار رواية سنة 2000.

- L'amour de loin الحب من بعيد أوبرا سنة 2001.
 - Le dérèglement du monde-Quand nos civilisation s'épuisent خلل العالم... حين ترهق الحضارتنا بحث نقدي سنة 2009.
 - عالم الفوضى... وضع مسار جديد للقرن الواحد والعشرين بحث نقدي سنة 2012.
 - Origines بدايات بحث نقدي سنة 2012.
 - نال عدة جوائز عالمية وعربية منها: جائزة غونكور سنة 1993 عن رواية صحرة طانيوس.
 - جائزة ليون فييون سنة 1998 عن الهويات القاتلة قراءة في الانتماءات والعمولة.
 - جائزة دور الصحافة سنة 1988 عن رواية سمر قند.
 - جائزة الصداقة الفرنسية العربية سنة 1986 عن رواية ليون الافريقي.
 - جائزة المتوسط سنة 2012 عن بدايات.
- ترجمت أعماله إلى عدة لغات، تحصل على كرسي في الأكاديمية الفرنسية ليكون ثاني عربي يحصل على هذا المقعد بعد الكاتبة الجزائرية آسيا جبار.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

المصادر:

01- أمين معلوف: الهويات القاتلة، تر: نحلة بيضون، دار الفاربي-بيروت-لبنان، ط1، 2004.

الكتب العربية:

02- أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية، دار الأمة، الجزائر، د.ط، 1996.

03- أبو البقاء الكفوي: الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1991م.

04- أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، دار الساحل للكتاب، الجزائر، د.ط، 2013م.

05- أعمال اليوم الدراسي: الرواية بين ضفتي المتوسط، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 11.5.2010.

06- جابر عصفور: الهوية الثقافية والنقد الأدبي، سلسلة العلوم الاجتماعية، دار الشروق، القاهرة، مصر، د.ط، 2010.

07- حاتم الورفلي، بول ريكور: الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، 2009.

08- حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، ط3، 2006.

09- الحسين الزاوي: الهوية وفلسفة اللغة العربية، ط1، منتدى المعارف، بيروت، 2014.

10- حفاوي بعلي: تمثلات الممنوع والمقموع في الرواية العربية المعاصرة، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة العربية، 2015.

11- دينس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، مركز دراسات الوحدة العربية للترجمة، لبنان، 2007م.

12- سعد الغراب: العامل الديني والهوية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1990.

13- سعدون حمادي وآخرون: اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1984.

- 14- سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي دراسة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، 2016.
- 15- سمير خليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، د.ط، 2004.
- 16- طالب علي: الهوية، بيت المواطن للنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 2016.
- 17- عبد الرحمان النوايتي: السرد والأنساق الثقافية في الكتابة الروائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 1437هـ/2016م.
- 18- عبد السلام المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي (دراسة توثيق)، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط 1، 2014.
- 19- عبد السلام بنعبد العالي: هايد غار ضد هيكل التراث والاختلاف، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 2، 1427هـ/2006م.
- 20- عبد العزيز التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ط 2، المغرب، 2015.
- 21- عبد العزيز بن عثمان التويجري: التراث والهوية، دط، منشورات المنظمة، مطبعة إيسيسكو، الرباط، 2011.
- 22- عبد الغني عماد: سوسيولوجيا الثقافة المفاهيم والإشكالات ... من الحداثة إلى العولمة، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001.
- 23- عبد القادر فضيل: اللغة ومعركة الهوية في الجزائر تقديم محمد العربي ولد خليفة، ط 2، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.
- 24- عبد الله المسدي: الهوية العربية والأمن اللغوي، دراسة وتوثيق، المركز العربي لأبحاث لدراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط 1، 1435/ تموز (يوليو)، 2014م.
- 25- عز الدين المناصرة: الهويات والتعددية اللغوية، المابل للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2013.
- 26- علي أحمد سعيد أدونيس، شانتال شواف: الهوية غير مكتملة الإبداع، الدين، السياسة الجنس تح: حسن عودة، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 1، 1426هـ/2005م.

- 27- علي بن محمد الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1403 هـ-1983.
- 28- علي حرب: حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004.
- 29- فتحى بوخالفة: شعرية القراءة والتأويل في الرواية الحديثة، عالم الكتب الحديث، الجزائر، ط1، 2010.
- 30- فخري صالح: إدوارد سعيد: دراسة وترجمات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009.
- 31- فراس الحواس: دين الإنسان، منشورات علاء الدين، دمشق، ط4، 2002.
- 32- كمال شلغين: الهوية العربية صراع فكري وأزمة واقع دراسة في الفكر العربي المعاصر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سورية، د.ط، 2015.
- 33- مجموعة مؤلفين: اللغة والهوية في الوطن العربي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1، 2013.
- 34- محمد إبراهيم عيد: الهوية والقلق والإبداع، ط1، جمهورية مصر العربية، القاهرة، 2002.
- 35- محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ثلثة للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2007.
- 36- محمد عابد الهاجري: مسألة الهوية العروبة والإسلام... الغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط4، 1433هـ/أيلول سبتمبر 2012.
- 37- محمد نور الدين أفاية: الغرب المتخيل، صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي العربي، د.ب، ط1، 2000.
- 38- مصطفى الشريف: الإسلام والحداثة هل يكون غداً عالم عربي؟! دار الشروق، القاهرة، ط1، 1999.
- 39- منير غسان وآخرون: الهوية الوطنية والمجتمع العالمي والإعلام (دراسات في إشكالات تشكل الهوية في ظل الهيمنة الإعلامية)، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2002م.
- 40- نصر محمد عارف: "الحضارة، الثقافة، المدنية"، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، 1994م.
- 41- نوال حمادوش: السلوك اللغوي والهوياتي في المجتمعات المغاربية، دار الأيام للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1436/2015م.

42- هاني الجزائر: أزمة الهوية والتعصب (دراسة في سيكولوجية الشباب) هلا للنشر والتوزيع، الجيزة، القاهرة، مصر ط1، هـ 1432 / 2011م.

43- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، تح: هلا رشيد، دار القلم، بيروت، لبنان، ط 1، 1990.

المراجع المترجمة:

01- اليكس ميكشلي: الهوية، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط1، 1441هـ/1993م.

02- إدوارد سعيد: خارج المكان، تر: فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2000.

03- أنيا لومبا: في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط: 1، 2007م.

04- إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، تر: نائلة قلقلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2008.

05- دوركهام نقلا عن كلود دوبار: أزمة الهويات (تفسير تحول)، تر: رندة بعث، المكتبة الشرقية، لبنان، ط1، 2008.

06- ريجارد جنكز نقلا عن هارلمس وهولبورن: سوسيولوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2010.

07- السلطة والسياسة والثقافة، تر: نائلة قلقلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2008.

08- طوني بنيت وآخرون: مفاتيح إصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط 1، 2010م.

09- فردناند دي سوسير: علم اللغة العام، تر: يوثيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، د.ط، 1985.

10- كريس باركر: معجم الدراسات الثقافية، تر: جمال بلقاسم، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2018.

11- مالك شبل: الجنس والحريم روح السراري: السلوكات الجنسية المهمشة في المغرب الكبير، تر: عبد الله زارو، أفريقيا للنشر، المغرب، 2010.

12- هارلميس وهولبوزن: سوشيلوجيا الثقافة والهوية، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر، دمشق، ط.1، 2010.

المجلات والدوريات:

01- سهيلة زوار: إشكالية الهوية الثقافية الجزائرية في ظل الإعلام الجديد، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية - جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، العدد23، سبتمبر2017.

02- أحمد محمد وهبان: الهوية العربية في ظل العولمة (إطلالة على حال الهوية في مصر والعالم العربي)، (د ط)، سلسلة إصدارات الجمعية السعودية للعلوم السياسية بجامعة الملك سعود.

03- أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات لسوسيوقراطية للمجتمع الجزائري. مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي الوادي.

04- أحمد محمد وهبان: الهوية العربية في ظل العولمة (إطلالة على حال الهوية في مصر والعالم العربي)، (د ط)، سلسلة إصدارات الجمعية السعودية للعلوم السياسية بجامعة الملك سعود.

05- حسام الدين علي مجيد، " انبعاث ظاهرة الهويات، قراءة في منظور المفكر تشارلز تايلور"، موقع مؤمنون بلا حدود، 23-06-2022

06- حكيمة بولشعب: تحديات الهويات الثقافية العربية في ظل العولمة، نقلا عن: أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات للمجتمع الجزائري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي، الوادي-الجزائر، (د/ت)، العدد01.

07- سعاد بضياف، لبوخ بوجملين: أثر الهوية اللغوية في تطور اللغة العربية، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرياح وجامعة باتنة 2، الجزائر، العدد 25، جوان 2016،

08- عز الدين لمناصرة: العولمة والهويات: هويات مطمئنة، هويات قلقة، وهويات مقهورة (قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن)، مجلة التبيين، مجلة ثقافية فصلية محكمة، تصدر عن الجمعية الثقافية الجاهظية، مدعمة من دار سعاد الصباح، الع 24، 1426هـ/2005م.

09- ليلي بلخير: إشكالية مفهوم الهوية في الكتابة العربية مجلة الذاكرة، الجزائر، العدد الثامن، 2017.

10- محمد الحنفي: الهوية والعولمة، نقلا عن: أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات لسوسيو ثقافية للمجتمع الجزائري.

- 11- محمد حسن برغثي: الثقافة العربية والعملة دراسة سوسيوولوجية لآراء المثقفين العرب، نقلا عن: أسماء بن تركي: الهوية الثقافية بين قيم الأصالة والحداثة في ظل التغيرات السوسيوثقافية للمجتمع الجزائري.
- 12- محمد سبيلا: مدارات خطاب الهوية، ندوة علمية تحت عنوان: الهوية والتقدم، جامعة الزيتونة، المعهد الأعلى لأصول الدين، تونس، أبريل 1993.
- 13- موسى الشرفاوي نقلا عن ثناء هاشم محمد: الهوية الثقافية و التعليم في اتمع المصري (رؤية نقدية)، مجلة كلية التربية، جامعة بني سويف، عدد يناير، ج1، 2019 .
- 14- نصر الدين دلاوي: قراءة و تحليل في كتاب (الهويّات القاتلة) لأمين معلوف، مجلة جيل العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة معسكر، الجزائر، العدد 51.
- 15- نور الدين صدار: دور اللغة العربية في الحفاظ على الهوية القومية وكسب رهانات وتحديات العمولة، دط، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر.
- 16- هشام بن الهاشمي: إدوارد سعيد من دنيوية النقد إلى هجنة الهويات، مجلة الأزمنة الحديثة، مجلة فلسفية فصلية تعنى بشؤون الفكر والثقافة، عنوان العدد الإسلام والحداثة، العدد 8، يونيو 2014.

المعاجم والموسوعات:

- 01- اندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدة، بيروت، لبنان، باريس، فرنسا، ط2، 1420هـ/2001م.
- 02- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1863.
- 03- ديوان عدي بن الرقاع العاملي، جمع وتحقيق: د. حسن محمد نور الدين.
- 04- ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق: د. عميل بديع يعقوب.
- 05- الصحاح، الجوهري، محيط المحيط، بطرس البستاني، مادة (ثقف).
- 06- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، مادة الهوية، دار صادر، بيروت، ط8.
- 07- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، (د، ط)، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007.
- 08- معجم مقاييس اللغة، اين فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، مادة (ثقف): المصباح المنوي، المفري الفيومي، مادة (ثقف).
- 09- نواف نصار: معجم المصطلحات الأدبية، دار المعتر للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2009.

الرسائل الجامعية:

- 01- الحنساء تومي: دور الثقافة الجماهيرية في تشكيل هوية الشباب الجامعي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، جامعة خيضر، بسكرة، 2016، 2017.
- 02- بدر الدين بن بلعباس: شبكات التواصل الاجتماعي والهوية عند الجامعيين الفاييس بوك وطلبة جامعة بسكرة نموذجاً، مذكرة مكملة لإستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في علم الاجتماع، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 1435-1436هـ/2014م، 2015.
- 03- سعيدة بن بوزة: الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، بحث مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه للعلوم في الأدب العربي الحديث، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007/2008.

المعاجم الأجنبية:

- 01- Coulson .J Carr.C.T, The Oxford Illustrated Dictionary , Fifth Edition , New York, 1979.
- 02- The sage Dictionary of cultural studies : Chris baker ; sage publication ;london 2011. تر: جمال بلقاسم، تحت عنوان معجم الدراسات الثقافية.

الموقع الإلكتروني:

- 01- مازية حاج علي : الهوية و الاستعمار ، ندوة المخبر: الهوية في الأدب الجزائري ، جامعة محمد خيضر- بسكرة ، من موقع : Lab.univ-biskra.dz.

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوعات
/	شكر
/	الإهداء
أ	مقدمة
الفصل الأول: مقارنة نظرية في مفهوم الهوية	
05	المبحث الأول: مفاهيم ومصطلحات نظرية في الهوية
05	المطلب الأول: مفهوم الهوية
05	- لغة
06	- اصطلاحا
07	المطلب الثاني: مفهوم الهوية في منظور العلوم
07	- المنظور الفلسفي
10	- المنظور النفسي
11	- المنظور الاجتماعي
13	المبحث الثاني: أبعاد وأنواع ومقومات الهوية
13	المطلب الأول: أنواع الهوية
17	المطلب الثاني: مقومات الهوية وتحليلاتها في الآداب
24	المطلب الثالث: الخصائص الأساسية للهوية
الفصل الثاني: تجليات أزمة الهوية في كتاب الهويات القاتلة لأمين معلوف	
27	توطئة
30	المبحث الأول: أزمة الهوية وإشكالية الانتماء في كتاب الهويات القاتلة
30	المطلب الأول: مفهوم الهوية وتشكل عناصر الانتماء عند أمين معلوف
36	المطلب الثاني: أزمة الهوية وإشكالية الانتماء والدافع إلى الصراع الهوياتي
39	المبحث الثاني: مرجعيات تشكل الهوية عند أمين معلوف
39	المطلب الأول: المرجعية اللغوية (أزمة الهوية اللغوية)

فهرس الموضوعات

46	المطلب الثاني: المرجعية الدينية (أزمة الهوية الدينية)
60	المطلب الثالث: المرجعية الثقافية (أزمة الهوية الثقافية)
78	الخاتمة
80	الملحق
83	قائمة المصادر والمراجع